رحلة .. في

دنيا المستقبل

تقديم الكاتب الفرنسي

اندريه موروا

للكاتب الانجليزي

هـ . ج . ويلز

١٠

سلسلة ثقافية شهرية

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ١٤١ – رجب ١٣٨٢ – ديسمبر ١٩٦٢

No. 141 — DECEMBRE 1962

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان جنيه واحد – فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا – فى بلاد اتحاد البريد العربى بالبريد البحرى جنيه و ٣٠٠ مليم و (الطائرة) ١٫٧٨٠ – فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف – فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

ں

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

رحلة فى دنيا المستقبل

للكاتب الإنجليزى

هـ . ج . ويلز

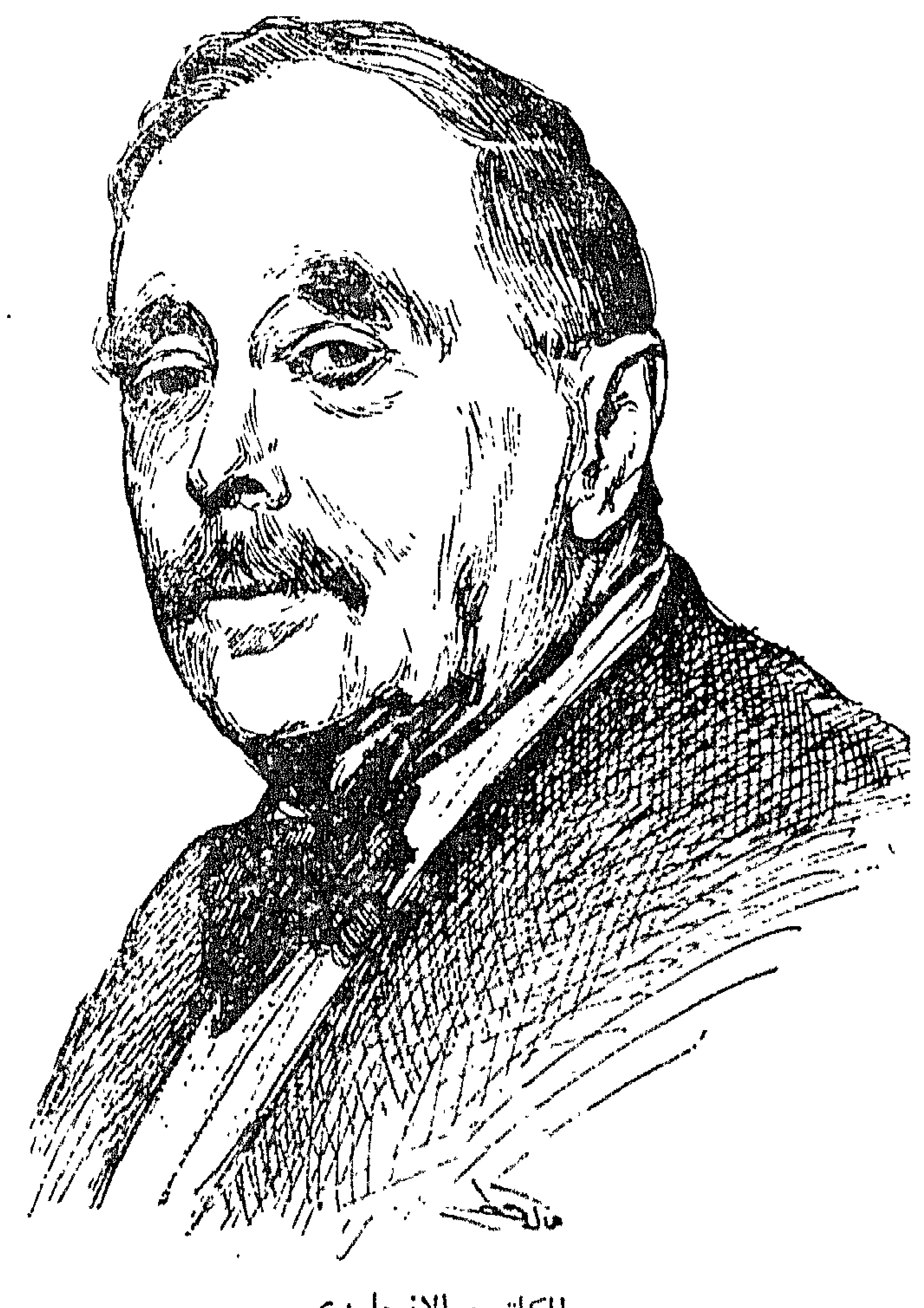
تقديم الكاتب الفرنسى

اندريه موروا

ترجمة :

الدكتور نظمى لوقا

دار الهلال



الكاتب الانجليزى
هـ • ج • ويلز

تقديم

بقلم الكاتب الفرنسى الكبير

أندريه موروا

لا يستقيم الامر لأصحاب النبوة فى جميع الازمان ، ولا فى جميع المواضع على السواء .. فالعهد بأوقات الاستقرار التى تسود فيها الثقة ألا تحتاج الى أنبياء ، وانما تكون الحاجة الى الانبياء فى عهود القلق والاضطراب ففى تلك العهود تتميع القيم لانها لم تعد صالحة لهداية الناس ، فيشتد الشعور عندئذ بالحاجة الى نمط جديد، أو الى تنظيم جديد يصوغ عالما أفضل ..

وقد بلغت الحضارة الغربية عصر القلق بعد أن بلغ التصنيع ذروة التقدم ، وأوشك العلم بمبتكراته المذهلة وإمكاناته الجبارة أن يفتح فى حياة الناس صفحة جديدة لا عهد لهم بها من قبل

ولهذا السبب صارت حاجة الحضارة الاوربية شديدة الى ضرب من ضروب الانبياء تتفق رسالته من حيث المضمون والشكل مع عصر العلم الذى بزغ فجره ..

وكان « هربرت جورج ويلز » هو الرجل الذى أعدته الاقدار ليكون ذلك البشير النذير بين يدى جنس من البشر ، أزاغت الاضواء القوية عينيه وأدارت رأسه ..

وهربرت جورج ويلز ـ بحكم تكوينه العلمى ، وبمدد من خياله الخصب ، وبسند من حبه للانسانية ومن روحه الفنية ـ أصلح الناس لاستبصار ذلك المستقبل ، والدعوة له بلسان العقل وبلسان العلم .. سواء علم الطبيعة أو علم النفس

***

وأيا كان الرأى فيما دعا اليه من علاج لأضواء الحضارة الحديثة ، فمما لا شك فيه أن رؤيته العلمية التى صاغها فى قالب قصصى شائق أنارت الطريق أمام جيلين على الاقل من القراء الواعين فى آفاق الارض .. وأن تفكيره الاجتماعى التقدمى استولى على الباب جيلين على الاقل من المعنيين بالتقدم الانسانى ومن المهتمين بالعدالة الاجتماعية ، والاصلاح الاجتماعى على وجه العموم

وقد ظل ويلز قرابة ثلث قرن صاحب هيمنة عقلية فى أوربا وأمريكا ، تضارع فى علو المكانة واتساع النفوذ ما كان يتمتع به فولتير فى القرن الثامن عشر .. حتى لقد حق له أن يقول بأعلى صوته فى عصر الحق الالهى للملوك :

ـ لا يضيرنى الا يكون فوق رأسى تاج ، وفى يدى هذا « القلم » !!

فقد كان صوت ويلز مسموعا ومحترما من الجميع ، فاستزاره أقطاب الارض فى المعسكرين الشرقى والغربى . استزاره ستالين كما استزاره روزفلت ، وناقشاه فى أحوال العالم ومشكلاته مناقشة الند للند ، لانهما يعلمان أن له من السلطان على العقول ما يضارع على الاقل سلطانهما على الجيوش والحكومات .. وكم من مرة زلزلت أقواله عصبة الامم العتيدة ، وهو يوجه اليها النصح أو

يوبخها على التقصير فى خدمة قضـــية السلام وصيانة مستقبل الحضارة البشرية

ان الحقيقة التى لا مراء فيهـا ، ان كلمـات هربرت جورج ويلز كان لها على الدوام وزن لا يقل عن وزن تلك النذر التى كانت تتنزل على الناس من آفاق فوق افاق البشرية . ولذا جنح فى العشرين عاما الاخيرة من عمره الى الارشاد الصريح السافر متخليـا فى شيخوخته عن الاسلوب القصصى ، مستخدما أسلوبا شـبه دينى .. كان الناس يتقبلونه بخشوع شبه دينى كذلك !

وهو فى كتاباته جاد العقل ، وان لم يكن على الدوام جاد الاسلوب .. بيد ان الدعابة التى تشوب أسلوبه ولا سيما فى قصصه العلمى لا تخدع القارىء . فما من أحد يمكن ان يأخذ كتاباته على غير محمل الجد ، فأدبه العلمى من ذلك النوع المضىء الذى يفتح الافـاق أمـام العقل والقلب .. وان لم يسلم الانسان على الدوام بـكل ما يذهب اليه ذلك العالم الفيلسوف الذى خرج على الناس فى أزمة الحضارة متخذا مسوح الانبياء

***

ولعل امتيـاز هربرت جورج ويلز يكمن فى مزج العلم بالادب ، وفتح عيـون النـاس عن طريق ذلك اللون من القصص الذى ابتكره كى يدركوا حقيقة وجودهم وأسرار عالمهم وحياتهم ومدى ما يطرأ على ذلك كله من اختلاف هائل .. قد يصل الى حد الفناء المطلق لو أن ذرة واحدة من عناصر تلك القوانين الكونية عبثت بها يد عابث

وهذا هو سر افتنان الناس بأدبه العلمى الذى ابتدعه

.. وهو أدب يختلف تماما عن أدب علمي اشتهر به كاتب فرنسي اسمه جول فيرن ... فان « جول فيرن » يستخدم حقائق العلم ليسلي الناس بمغامرات مدهشة فهو يجعل حقائق العلم في خدمة الادب والتسلية .. ويجعل نبوءاته العلمية بالطيران وغزو القمر مطية لامتاع القراء. أما هربرت جورج ويلز فيسخر الادب والمتعة القصصية والتشويق لخدمة الثقافة العلمية ، وتبصير الناس بالهاوية التي يمكن أن يتردوا فيها .. ويشير عليهم بطريق النجاة والازدهار الحضاري اذا شئنا أن ننجو ونتعقل ..

ولذا نجد ويلز حريصا – أولا وقبل كل شيء – على تدعيم التفكير العلمي في اذهان الناس ، واقتلاع بقايا جذور التفكير الخرافي غير العلمي .. تلك البقايا التي لم تزل معششة في اذهان السواد من الناس . وهو في هذا السبيل لايتردد في استخدام السخرية اللاذعة لبيان مدى سخافة كل تفكير غير علمي .. وله في ذلك تحف أدبية خالدة ، نبهت العقول واسترعت الالباب .. وكانت من أكبر العوامل على دفن التفكير غير العلمي دفنا لا يرجى له بعده بعث .. !

ومن أشهر تلك الطرف الباقية ماتناول فيه فكرة المعجزة . وقد شاءت سخريته اللاذعة ان يجعل مسرح تلك القصة في حانة من الحانات التي تنتشر في ريف انجلترا ويسهر فيها الناس مساء السبت ماشاء لهم السهر ، فيفرطون في الشراب افراطا مسرفا .. ويختلط في جماعتهم الجاهل والمتعلم والفلاح والصانع والساقية الحسناء البلهاء .. فتلك الجماعة نموذج حسن للعقليات المختلفة في المجتمع الكبير ..

فأنت ترى ان العالم الاديب ويلز ، وقد بدأ بتحضير عناصر القصة فى دقة علمية .. وكأن الاشخاص مستحضرات كيماوية يدقق فى حصرها وتحديد صفاتها وخواصها ، قبل أن يجرى عليها تجربته ليشاهد تفاعلاتها

ويجرى ويلز على ألسنتهم ـ فيما بين رشفات الشراب وكئوسه المترعة ـ حديثا ذا شجون فى أمور شتى لا رابطة بينها ، ويجعل أحد الكتبة عند سمسار من سماسرة البورصة شابا تقدميا مولعا بشيئين أولهما الافراط فى احتساء الجعة .. والامر الآخر مناقشة الافكار التقدمية بجراة واندفاع يثيران استنكار المجتمع المحافظ

وهو فى تلك الليلة يشرب كثيرا ويتناقش كثيرا .. ولا يدرى أحد كيف تحدث بعض الندامى عن المعجزات ، فاذا هذا الشاب التقدمى الذى يدعى « ماك » ينتهز الفرصة ليستعرض عضلاته العقلية أمام خادمة الحانة المليحة التى ترمقه بنظرات الاعجاب لفصاحته التى لاتفقه فيها شيئا ! ..

ويلح « ماك » فى انكار المعجزات انكارا تاما .. ويصر بقية الشاربين على وجود المعجزات ووقوعها . وهنا يتراءى لويلز أن يبلغ قمة السخرية .. فيجعل « ماك » يدق المائدة بقبضة يده متحمسا ويصيح :

ـ أنا لا أحب الكلام المرسل على عواهنه .. فهيا نتفق أولا على المقصود بالمعجزة .. ان المعجزة لا تسمى بهذا الاسم الا لانها شىء مضاد للتيار الطبيعى للاشياء ، شىء تحدثه ارادة مستقلة عن الطبيعة التى نعرفها .. وسأضرب الآن مثلا ..

ويتلفت ماك فيما حوله ، وقد تعلقت به جميع أبصار

الشاربين ولا سيما الساقية الحسناء ، فيقول :

ـ لنأخذ شيئا من الاشياء المادية الموجودة أمامنا هنا .. وليكن هذا المصباح المضاء بالغاز . ان الطبيعى أن شعلته تتجه من أسفل الى أعلى .. أليس كذلك ؟

ـ طبعا .. وبعد ؟

ـ لنفرض ان شخصا ما .. وليكن هذا الشخص أنا ؛ زعم لكم انه يستطيع أن يقلب هذا المصباح رأسا على عقب من غير أن يتحطم أو يسقط على الارض ، بل يستمر فى الاشتعال وهو مقلوب بشعلة من أعلى الى أسفل .. هل تظنون هذا ممكنا ؟ .. اننى لكى أبرهن لكم على سخافة تفكيركم سآمر هذا المصباح بكل قوتى ، ان يفعل ما حدثتكم به .. هيا ايها المصباح !

وارتفعت على الفور ضجة فى الحانة .. لأن المعجزة التى سخر منها منكر المعجزات قد وقعت .. ووقعت عن طريقه هو بالذات ، وأطلقت الساقية الحسناء صرخة مدوية ثم سقطت مغشيا عليها . ولم يكن ذعر ماك أقل من ذعر بقية الجلساء .. وبعد قليل تهالك فوق مقعد ، فسقط المصباح على الارض وتحطم ..

***

هكذا وصل ويلز بالتشويق فى قصته الى الذروة .. وببراعة عكس الادوار ، فأعطى لمنكرى المعجزات القدرة على صنع المعجزات . وأثبت بأمانة علمية أن التركيز الشديد للارادة ، هو أقوى سلاح فى يد الانسان .. وأن كل من يصنع معجزة لابد ان يكون قوى الارادة وصاحب قدرة بالغة على التركيز . أما حين يتخاذل ايمانه

وتتهاوى ارادته ، فكل شيء ينقلب الى حطام ..

ويمضى ويلز بذلك الشخص الاعجوبى ماك ، فيجعله يقوم بتمرينات وتجارب لموهبته التى اكتشفها ، والتى صارت محل انكار ممن كانوا يؤمنون بامكان حدوث الخوارق من قبل ..!

دخل ماك بيته الحقير ، وافتقد عود ثقاب ليوقد الشمعة .. فركز ارادته وتمنى أن يكون فى يده صندوق ثقاب ، وعلى الفور تم له ما تمنى ! ..

ومرة أخرى يطوى ويلز هذه السخرية بالخرافة على معنى بناء .. ان الارادة تحقق المستحيل ، وأنه لاشيء يمكن أن يتم - حتى ولو كان ممكنا كل الامكان - من غير عزيمة وارادة ..

وتمشيا مع سباق التشويق القصصى ، جعل « ماك » يتمنى عشاء فاخرا .. فاذا بين يديه مائدة حافلة بكل ما لذ وطاب . وأراد أن يغسل أسنانه ، فوجد الفرشاة بالية فتمنى فرشاة جديدة فكان له ما أراد ! .. ولم يعجبه فراشه الحقير ، فتمنى فراشا وثيرا وأغطية من وبر الابل وفراء الثعالب .. فظفر بما تمنى . وفى فراشه ذاك ، نعم بالنوم .. وما طلع الصبح حتى سخر موهبته فصنعت له افطارا شهيا ، وثوبا فاخرا .. وحملته القوة الخفية الى عمله حملا .. وسودت له الصفحات ، وجمعت وطرحت وهو لا يبذل جهدا .. !

وفى طريق عودته الى داره مسرورا ، خطر له أن يتسلى .. فأمر عصاه أن ترقص فى الهواء وحدها ، فاستجابت له ، واذا الناس يتجمعون .. وأصر الشرطى على أخذه

الى مركز الشرطة ، فصرخ ماك فيه :

ـ اذهب عنى إلى الجحيم !

فاذا بالشرطي وليس له أثر .. وحزن ماك ، واستهول ما أنزله من العقاب بالرجل المسكين .. ولكنه لم يلبث أن صرف ذهنه عن التفكير فى ذلك ، ومضى يمارس من متع الحياة وملذاتها ما لم يظفر بمثله علاء الدين من مصباحه السحرى فى كتاب ألف ليلة وليلة القديم ..

ولما كان ماك تقدميا ، فقد خطر له أن يسخر موهبته لاصلاح المجتمع ولما يعود بالنفع على عشيرته أجمعين .. فأخذ يأمر بتوسيع الشوارع وحفر الانفاق تحت الارض وتعديل خطوط سكة الحديد .. وأنبت فى التلال القاحلة أشجار الصنوبر ، وجلب اليها أشجار الارز من لبنان ، وتحكم فى الحرارة والبرودة وشدة الرياح

وخطر لماك ان يستغل موهبته فيما هو أعظم وأخطر وأجل .. فكر فى التحكم فى قوانين الفلك ، فأمر الارض أن تكف عن الدوران .. فصدعت الارض بأمره . واذا الجبال تندك ، والعمائر تنهار ، والاشـــجار تقلع من جذورها ، واذا أمواج المحيط العاتية تجتاح العاصـمة كأنها الجبال !

وذعر ماك مما أقدم عليه من غير روية ، فصرخ بأعلى صـــوته :

ــ عودى الى الدوران أيتها الارض !

فعادت الارض الى الدوران .. ولكن الخراب الذى حدث كان عاما شاملا ، بصورة أفزعت ماك .. فكل شيء

قد تهدم وتلاشى من حــوله . وفتح عينيه يرفعهما الى السماء مستنجدا ، واذا به يجد نفســـه ملقى فى ركن الحانة .. والمناقشة لم تزل محتـــدمة حول المعجزات : أممكنة هى أم غير ممكنة ! ؟

***

وهكـــذا يبلغ ويلز غاية الغايات فى سخريته ودعابته وجده فى آن واحد .. فهو يريد أن يقول ان الكلام عن المعجزات فى ضوء العلم ممكن داخل حدود معينة . هذه الحدود هى العزيمة الصادقة للسيطرة على قوى الطبيعة عن طريق المعرفة والدرس لا عن طريق الاوهام والاحلام.!

وهو يريد أن يحذرنا من شىء آخر خطير . لعله أخطر من الانسياق وراء الاوهام والاحلام ، فالاوهام واحلام اليقظة قد تكون من خيالات الافراط فى الشراب .. ولن تؤدى فى النهاية الا الى يقظة قاسية ان عاجلا أو آجــلا، نجد فيها الواقع مسيطرا على حياتنا . أما ما هو أخطر من الاندفاع وراء الاوهام والاحلام ، فذلك هو الوصول الى الســـيطرة على أسرار الطبيـــعة ثم اســـتخدام تلك السيطرة استخداما طائشا .. يمكن أن يؤدى فى لحظة واحدة الى تدمير حضارتنا تدميرا تاما ..

فلو فرضنا اننا حصلنا على ســـلطان علمى يوازى السلطان الخرافى الممنوح للفتى التقدمى ماك ، فيجب الا نتورط فى مثل حمـــاقته .. فنسخر ذلك للعبث بقوى الكون العظمى عبثا قد يقضى علينا . وانما الاحرى بنـــا أن تستخدم هذه الســـيطرة لاصلاح المجتمع ورفاهيـــة البشر فنزرع الخير ونستزيد منه .. ولا يدفعنا الغرور الى العبث بمصائر جنسنا لمجرد الشعور الاجوف بالسلطان

مثل هذا الدرس البليغ ، نجده فى كل تحفة من درر ويلز فى أدبه العلمى .. فهو معلم وعالم يستحق مكانة أصحاب الرسالات الانسانية فى عصر العلم ، وهو أيضا ديدبان ساهر يرى المستقبل ويحذر من الخطر الداهم الذى يكمن فى حماقة البشر الذين تزداد سيطرتهم على الطبيعة من غير أن يقابل ذلك تحكم حكيم فى نفوسهم

ان ويلز هو أول من خرج الى الفضاء .. سبق فى ذلك جاجارين بزمن طويل .. ان من كتبه «حرب الكواكب». ومن كتبة « آلة الزمن » . وهو أول المسافرين الى التمن ..

***

والآن من هو هذا الرجل الذى خرج فى أزمة الحضارة ليرفع اللواء لعصر العلم ومجتمع المستقبل ؟ ..

من هو ذلك الذى نادى باشتراكية يتولى القيادة فيها الصفوة الممتازة من أشراف الناس ؟ ..

انه ابن خادمة ! ..

انه ابن امرأة لو تقدم بها الزمن بضعة قرون لقيل عنه انه ابن أمة من الرقيق ! ..

لقد كتب ويلز ترجمة حياته بقلمه ، ولم يخف فيها شيئا من أسرار نشأته .. فذكر أن أمه كانت خادمة فى قصر ريفى كبير ، ثم تقدم الزمن بتلك الخادمة فصارت مدبرة القصر .. اى رئيسة للخدم

ويصفها ابنها بأنها كانت امرأة ضئيلة الجسم ، لطيفة المعشر ، شديدة التدين ، تحترم النظم الاجتماعية القائمة .. أى أنها كانت ممن يسميهم الناس بالمحافظين ، ففاية

أمانيها حين كبرت سنها وصارت أم كاتب من أشهر رجالات زمنه أن تقلد بقدر الامكان فى الزى والسمت « حضرة صاحبة الجلالة الملكة فيكتوريا المعظمة ملكة انجلترا وامبراطورة الهند وحامية الايمان وصاحبة المستعمرات التى لا تغيب عنها الشمس ! »

ومن أبوه ؟ ..

انه بستاني فى ضيعة مجاورة اسمه جوزيف ويلز .. وكان على خلاف زوجته فى المزاج والطباع ، فهو غير متزمت .. يحب الرياضةواللهو والصيد ، ويكره مجالس الوقار . وهو متوقد الذكاء ، فكان هذا الزواج بين نقيضين مصدر شقاء كبير لتلك المرأة الطيبة محدودة العقل .. !

ونشأ الفتى شديد الاعجاب بذكاء أبيه .. وورث عنه عقله المتفتح وعينيه الزرقاوين العميقتين كأنهما قطعة من ماء المحيط ! ..

وما أكثر ما كانت « سارة » تقول لابنها الصغير :
ـ من سوء طالعك أن أباك ليس من الاشراف !

وكانت أقصى أمانيها له أن يغدو بائعا للاقمشة فى متجر محترم بالمدينة ! .. وقد وجهته فعلا الى هذه المهنة بعد أن اختلف الى المدرسة أعواما قلائل . وظل الفتى عامين من سنوات يفاعته ، ينام فى قبو أسفل المتجر .. ولا يصيب فى مأواه الرطب من الطعام الا أقله وأردأه .. يقدمونه اليه على مضض شديد ، ويمنون عليه به !

فلما بلغ الفتى الخامسة عشرة من عمره عمد الى الاباق ، كما يأبق العبد الرقيق من نير مولاه .. وما هذا

بكلام يطلق على سبيل المجاز ، فحياة العامل حينذاك هى بعينها حياة الرقيق قبل قرنين من الزمان أو أكثر .. فما تغيرت حقيقة الرق فى الواقع وان تغير العنوان ... !

وقطع الفتى الآبق نحوا من خمسة وعشرين كيلومترا ، سعيا على قدميه الكليلتين ، وهو خاوى المعدة . ولكن كان أشد عليه من خواء المعدة ، وخوار البدن ، شعوره بالتأثم الشديد لما يسببه من الهم والغم لأمه الطيبة التى سترى فى فعلته نذيرا قويا بالفشل يوشك أن يجعل منه نسخة مكررة من ابيه !

بيد ان ويلز عندما بلغ أشده ، حمد لنفسه ذلك الصنيع .. وأيقن انه كان من أحسن ما أقدم عليه فى حياته من الاعمال ، لأنه كان نقطة التحول الحاسمة فى مجرى حياته من الخمول والعبودية الى الانطلاق والنبوغ

***

ومما يذكر بالتقدير ولا مراء لويلز ، أن تلك المشاق المضنية فى باكورة صباه لم تترك فى نفسه أثرا باقيا من المرارة والحقد . وعند ما صور تلك الايام فى أقاصيصه ، جاء وصفه لها خلوا من كل شىء .. اللهم الا الدعابة الصافية . وهكذا المحنة تزيد الطبائع القوية قوة ..

والى هذه الأعوام يرجع الفضل فى تمكين ويلز من فهم الطبقات العاملة ومشكلاتها وشواغلها ، ومن دراسة الطبقات العليا عن طريق القصر الذى تعمل فيه أمه ومراقبة تلك الطبقات الراقية من الخارج قبل أن يظهر نجمه فيندمج فيها عن كثب ..

فى المساء كان يجلس وهو صغير فى قاعة الخدم بالقصر

مع أمه .. وعندئذ يقبل الساقى رئيس الخدم ، وقد أعد قائمة بالأخطاء اللغويةوالتاريخية التى تردى فيها السادة الأجـــلاء الذين يقوم بخـــدمتهم على المائدة وفى قاعة الاستقبال !

وقد نهج ويلز نهج ذلك الســاقى النحوى ! .. فهو يسجل مواطن الضعف الفكرى والوجـــدانى لدى من يتربعون فوق قمة النظام الاجتماعى فى العالم الحديث !

ومنذ بلغ الثالثةعشرة، شرع عقلويلز المتوقد يتساءل عن مبرر وجود هذه الطبقة الســـائدة ! .. وعن مدى لزومها لاستقامة الامور فى المجتمع ! وبدا له أن المجتمع يفتقر افتقارا شديدا الى التوازن بسبب وجــود تلك الطبقة العليا ، وهى غير كفء للوضع الذى تشغله فوق القمة . وبدا له أيضا أن الطبقة التى تسيطر على المجتمع الحديث، وليدة نظام اجتماعى اقطاعىأو زراعى أتت عليه يد التطور !

ولكنحذار أن يذهب الظنبنا الى أن ويلز كان من دعاة التمرد والثورة التى تستأصل شأفة كل ما هو فاســد بضربة واحدة .. فهو لم يكن يبغض الطبقة الثـرية أو يحقد عليهــا . وقصــارى الامر أنهم فى نظره ســـخفاء مضحكون .. وهــو يروى فى قصصه سخريته بنفسه ، عند ما كان يقلد أولئك المتكلفين المتحذلقين وهو غــلام صغير ..

ان ويلز أقرب بفكاهته السمحة الى الاستهانة بأبنــاء الطبقة العليا لا القسوة عليهم ..!

***

وكان الفتى ، منذ تعلم القراءة ، شغوفا بالعلم .. ولكن

لعل الفرصة ما كانت لتتاح له كى يشبع نهمه اليه ، لولا محنة ضاق بها هو وأهله أشد الضـــــيق حين ألمت به واحتسبوها نقمة خالصة ..

كسرت ساق الصبى وهو فى السابعة من عمره .. فظل قعيد الفراش شهورا لا هم له فيها الا استيعاب كل ما يتفق له من صـنوف الكتب ، يستعيض بالرحلة فى آفاقها عن الحركة بساقه المهيضة .. وهو يقرر فى سيرته بصريح العبارة :

ـ اننى مدين بوجودى اليوم على قيـد الحيـاة ، واشتغالى بصناعة القلم والرأى ، لساقى المهيضة .. فلولاها لكنت أكبر الظن بائعا هد الكدح القاتل قواه ، فطرده رب العمل ثم أدركه الموت ضعفا وحسرة ..!

ومن بذرة تلك الشهور التى قضاها قعيد الفراش ، تكونت لديه عادة الاطلاع حتى صارت شهوة وادمانا .. ثم نمت البذرة واتسعت دائرة الاطلاع بسرعة عظيمة ، حتى لقد أصابه من ذلك شر وهو فى الثـالثة عشرة من عمره حين كان صبيا بائعا فى متجر الاقمشة .. افتقده صاحب المتجر ونقب عنه ، فوجده فى المخزن خلف أحد الاعمدة يدون فى كراســة صغيرة اجابات موجزة عن أسئلة من قبيل : « ماهى المادة ؟ » و «ما هو الفضاء ؟»

ولما فر من جحيم ذلك المتجر الى أمه ، يعلن لها أنه لن يعود الى نير ذلك الرق .. قيضت له المقـادير معلما متقدما فى السن من معلمى مدارس الاقليم ، اكتشف فيه مواهب الذكاء اللامع وسـعة الاطلاع فأتاح له وظيفة مساعد مدرس فى مدرسة أولية .. وهو لم يبلغ السابعة عشرة من عمره

وأقبل الفتى على التعليم ، وراح فى الوقت نفسه يدرس ويتقدم من الخارج الى الامتحانات العامة فيجتازها بتفوق ملحوظ .. فقد خطر له أن يدخل مسابقة كلية معلمى العلوم فى كنسنجتن الجنوبية . ومن مزايا هذه المسابقة أن يحظى المتفوق فيها بمنحة دراسية تشبه البعثة الداخلية .. وجاء ترتيب ويلز فى تلك المسابقة الاول . وكانت قيمة المنحة الدراسية التى حصل عليها كى يعيش فى لندن ، ويتلقى العلم ، جنيها واحدا فى الاسبوع .. كان يعتبر مبلغا محترما فى ذلك الزمن . فلا عجب أن يفرح العالم الصغير الفقير بتلك الثروة الهابطة من السماء !

***

وكان بين أساتذته فى كلية كنسنجتن رجل من أعظم أساتذة عصره ، وهو الاستاذ هكسلى الكبير .. والد النابغتين العظيمتين جوليان هكسلى والدوس هكسلى .. وصديق ونصير العالم العظيم داروين . ولاشك فى أن شخصية هكسلى الكبير ، كانت أقوى وأعظم تأثيرا فى التلاميذ من صديقه الكبير الخجول داروين .. فلم يكن الدرس على يديه تعليما فنيا فحسب ، بل كان أيضا وقبل كل شىء تثقيفا وتشكيلا للعقل ولمنهج التفكير . وفى ذلك يقول ويلز :

ــ ان دراسة علم الحيوان ــ على يد هكسلي ــ كانت سلسلة رائعة من التدريب العلمى الصارم الدقيق الجاد .. انها تدريب على مناهج البحث ونقد الوقائع . ولا ريب عندى فى أن السنة التى قضيتها دارسا ــ على يد هكسلى ــ كانت أعظم السنوات أثرا فى حياتى التعليمية ، وأجداها ثمرة .. فقد ترك الى الابد فى عقلى طابعه الباقى ، وأخص خصائصه الحرص على الدقة فى الاستقراء واستخلاص

النتائج .. والنفور من الاحكام المبتسرة والظنون المرتجلة. وهذا هو الفارق الجوهرى بين عقل مثقف ، وعقل لم يدرك التثقيف

وفى تلك الفترة من العمر ، اختمرت لدى ويلز فكرته العلمية عن المجتمع البشرى .. فكتب مقالا أعلن فيه أننا ينبغى الا نعتبر البشر طبقات متفاوتة الا على سبيل المجاز البعيد ، فكل فرد فريد فى بابه .. بيد أن التفكير الرياضى والاسلوب الاحصائى هما اللذان يجنحان بنا الى هذا التصنيف ، فيسبق الى أوهامنا أن كل انسان شبيه بكل انسان ، كما تشبه الذرة الذرة .. مع أنه حتى الذرات لاتشبه الواحدة منها ذرة أخرى

ومن العجيب أن هذا الرأى فى الذرة انتهى اليه أكابر العلماء بعد أن أعلنه ويلز بثلاثين عاما !

وبعد تخرج ويلز فى تلك الكلية اشتغل معلما للاحياء ، ثم بدأ يبصق دما .. لان داء السل شرع يطرق باب صدره . وليس للمريض بالسل أن يشتغل بالتدريس ، فاحترف الكتابة الصحفية . وابتدع نوعا من الصحافة العلمية .. وقد ظل عامين يعيش بين المرض والفاقة ، ان أدرك ثمن القوت فاته ثمن الدواء !

***

وكان من الطبيعى أن يغرى هذا الصحفى العالم ـ صاحب الاهتمامات الاجتماعية ـ بخوض غمار السياسة .. بيد أن ويلز لم يستجب لهذا الاغراء ، وآثر أن يدخل ميدان الاصلاح الاجتماعى من باب الادب والقصة

ومن سنة ١٨٩٥ الى سنة ١٩٠٢ انصرف ويلز الى

كتابة القصة العلمية ، وذاعت شهرته بسرعة خارقة .. وأقام مجده الادبى العلمي على قصته الساحرة « رحلة فى دنيا المستقبل أو آلة الزمن » .. ثم أعقبها بجزيرة الدكتور مورو ، ثم الرجل الخفى . وأجمع النقاد على اعتباره مبتكرا لعالم خيالى كامل ..

وبعد ذلك أخرج سلسلة من الروايات ، صور فيها جوانب من حياته الشخصية بأسلوب ساخر ضاحك . وأهم هذه الروايات قصة « كبس » وقصة «مستر بولى» ثم أصدر سلسلة ثالثة من الروايات الذهنية أهمها قصة « الزواج » و « ميكيافيللى الجديد » . وأخيرا أصدر كتبا غير روائية يصور فيها أفكاره بصورة عقلية مرسلة .. وأهم هذه الكتب « الطوبيا العصرية »

وما أن اندلعت الحرب العالمية الاولى ، حتى كانت شهرة ويلز ـ أديبا ومصلحا اجتماعيا ـ لاتعلو عليها شهرة أحد . واتصل بالحركة الفسابية ، وعلى الخصوص ببرناردشو ، ورمزى ماكدونالد وأتباعه أقطاب الحركة العمالية فى انجلترا

ولكنه لم يلبث أن صارحهم باختلافه معهم فى الرأى .. فالاشتراكيون الحزبيون يؤمنون بصراع الطبقات ، وأن الطبقة العاملة يجب أن تصل الى الحكم فتسود الطبقات الاخرى . اما ويلز فكان همه موجها الى تنظيم جميع الطبقات ، وتهذيب التعاون بينها على أساس يحقق تكافؤ الفرص .. وبحيث تتعاون الطبقات جميعا للكفاح ضد الفوضى والغباء

ان ويلز لايسعى لتغليب طبقة على طبقة .. فالطبقات عنده من المجتمع بمثابة الاعضاء من البدن ، فلابد من

التنسيق التعاونى بينها حتى لايكون بعضها لبعض عدوا . وهذا التنسيق ـ على أساس علمى ـ لا محيص عنه فى عصر يسود فيه العلم .. فالعلم يؤمن بالتنظيم لابالتطاحن، وبالتعاون المثمر الموجه لا بالصراع

ان مايعنى ويلز من الاشتراكية هو اقامة جمهورية عالمية تتكفل بتنظيم الاحتياجات الجديدة للبشر ، وتتيح لحضارتهم العلمية أحسن ازدهار ممكن كى تعم مزاياها الجليلة الناس كافة

وهذه الجمهورية « الويلزية » ليست ديموقراطية تقوم على المساواة المطلقة ، بل لابد أن يحكمها صفوة الاشراف من الناس .. ولكنهم ليسوا أشراف الجاه والوراثة والثراء ، بل اشراف العلم والذكاء .. فأولئك بمثابة المخ من البدن ، اليه تصريف الامور وحده لانه وحده القادر على تصريفها ..

ولرسالة الجمهورية العالمية ، ولرسالة سيادة العقل والعلم .. ولرسالة تكافؤ الفرص وتعاون الطبقات لقيام مجتمع اشتراكى يسوده التعاون والتنظيم العلمى .. عاش ويلز عدوا للاستعمار والاستبداد ، مبشرا بالسلام ،داعيا الى تربية جديدة تخرج لنا الانسان الجديد الذى يصلح لعمارة عالم جديد يقوم على أساس من العلم والعقل والعدل

اندريه موروا

القسم الأول

رحلة المستقبل

المستحيل الذى صار ممكنا

الرحالة

كانت عيناه الرماديتان تتألقـان بوميض أخاذ .. أما وجهه الذى كنت أعهده فى العادة شاحب اللون ، فيبدو فى ضوء المصابيح الكهربائية محتقنا شديد الاحمرار مما يدل على أن صديقى رحالة الزمان كان يعانى صراعا عنيفا بين مشاعر متضاربة ، أو كان على الاقل تحت وطأة انفعـال من نوع خارق للمألوف ..

والواقع أن رحالة الزمان كان على وشك الافضاء الينا بموضوع على جانب كبـير من الخطورة ، كان حتى تلك الليلة يحتفظ به سرا مدفونا بين طوايا جوانحه . وكنا قد فرغنا لتونا من طعام العشاء الذى دعانا اليه ذلك الانسان الفريب الاطوار فى كل صغيرة وكبيرة من أمور حيـاته وتصرفاته .. فالمقاعد التى جلسنا عليها بعد القيام عن المائدة كانت وثيرة حقا ، ولكن لم تكن فخامتها ووثارتهـا أهم مافيها .. بل كان الطـريف حقا أنهـا من تصميم صاحبنا رحالة الزمان . وكان تصميما يجمع بين الاصالة والطرافة ، بحيث يحس الجالس وكأن الكرسى كائن حى يضم جسمه بين ذراعيه مرحبا مشوقا اليه .. فتكون الجلسة أقرب الى طمأنينة الحبيب بحبيبه ، منهـا الى الغـوص فى مادة جامدة مهمـا كانت درجـة نعومتها وطرافتها !

كل شىء فى جو هذا الرحالة وبيته مختلف حقـا عن

سائر ما فى بيوت الناس ، لان عقله مختلف عن عقول الناس وأساليب تفكيرهم المطروقة

وكنا نحسب فى بداية الامر أن السر الجديد تقليعة جديدة من مبتكراته التى لانهاية لها ، لان عهدنا بمخيلته الخصبة أنها عجيبة تلد كل عجيب .. ولكنه لوح بسبابته وقد ازداد احمرار وجهه تألقا ، وازداد بريق عينيه توهجا وقال :

ــ يجب أن تعيرونى انتباهكم ، وأن تتابعوا أقوالى بكل عناية ، لانى سأهدم بضعة أفكار معترف بها من جميع الناس ويعتبرونها مبادىء أساسية يقوم عليها بناء العقل وبناء الواقع .. فالهندسة التى علموكم اياها فى المدرسة مثلا ، سأثبت لكم أنها قائمة على وهم وتصور خاطىء بعيد عن الصحة كل البعد !

فقاطعه فيلبى ، وهو شخص مغرم بالجدل ذو شعر أحمر ، قائلا :

ــ أليست هذه بداية من العسير علينا أن نتقبلها ونعتبرها أساسا للمناقشة ؟ !

ــ أنا لا أريد منكم أن تتقبلوا شيئا من غير اثبات مقنع .. وستجدون أنفسكم مقتنعين بكل ما أريد منكم أن تقتنعوا به ، وكلكم تعرفون طبعا أن الخط الهندسى عبارة عن خط له طول وليس له عرض .. هو امتداد بدون سمك ، أى أنه شىء لا وجود له فى الواقع . أليس هذا ماعلموه اياكم فى المدرسة ؟ وكذلك جميع أنواع السطوح .. فالمساحة فى الهندسة شىء ليس له سمك . وهذه كلها امور ذهنية .. عبارة عن تجريدات ذهنية

وهز إحدنا ــ وهو عالم نفسانى ــ رأسه قائلا :

ــ هذا صحيح ..

ــ وبالمثل .. المكعب الذى ليس له سوى طول وعرض وارتفاع لايمكن أن يكون له وجود واقعى !

فصاح فيلبى :

ــ أنا أعترض على هذا الكلام .. فأى جسم له هذه الصفات من طول وعرض وارتفاع يمكن أن يوجد فى الواقع

ــ هذا مايتوهمه معظم الناس .. ولكن أمهلنى لحظة ، وأجبنى عن هذا السؤال : هل المكعب الذى لايستمر وجوده أى مدة من مدد الزمن يمكن أن يكون له وجود حقيقى ؟

وسكت فيلبى مفكرا فى السؤال ولم يجب ، فأدرك رحالة الزمان أنه عاجز عن الجواب .. واستطرد قائلا :

ــ من الواضح أن أى جسم له وجود واقعى يجب أن تكون له أربعة أبعاد : هى الطول والعرض والارتفاع و .. الزمن أو البقاء . ولكن الناس درجوا بسبب ضعف بصيرتهم ونقص ادراكهم على اغفال هذه الحقيقة .. فهناك فعلا أربعة أبعاد ثلاثة منها خاصة بالمكان ، والرابع هو الزمان . وهناك اتجاه عام بين الناس لوضع حد فاصل ــ لا أساس له من الواقع ــ بين أبعاد المكان الثلاثة والبعد الزمنى الذى هو البعد الرابع . وسبب هذا الاتجاه الخاطىء أن الوعى البشرى يتحرك بلا توقف فى وجهة واحدة من وجهات الزمان من بداية الحياة الى نهايتها ، فيغفل الناس ادخال الزمن فى حسابهم عندما يتصورون وجود الاجسام المادية .. ولا يبقى فى ذهنهم الا أن الاجسام موجودة فى المكان فقط

وهتف من بيننا شاب حديث السن جدا ، وهو يشعل سيجارا :

ـ لقد صار الامر فى غاية الوضوح حقا ..

وظهر السرور والانشراح على وجـــه رحالة الزمن ، واستطرد بمزيد من التفاؤل :

ـ وليس هناك اى فرق فى الحقيقـــة بين الزمن وبين أبعاد المكان الثلاثة ، سوى أننا نتحرك دائما فى الزمن بلا توقف . أما المكان فنتحرك فى بعض أبعـاده دون البعض الآخر وقد نتوقف فيه عن الحركة .. فيخيل الينا لتعود أبعاد المكان أن أبعاده هى الابعاد الوحيــدة للموجودات ، وننسى البعد الرابع للموجودات كلها وهــو الزمن الذى لانعرف له فى حياتنا الا بعدا واحدا يمتد على استقامته من المولد الى الممـات .. ولكن العلمـاء فى الوقت الحـاضر يبحثون فى اقامة علم جديد للهندسة ، هو الهندســـة الرباعية الابعاد ، بدلا من الهندسة القديمة الثلاثية الابعاد

وقال أحدنا ، وهو عمدة من عمد الاقاليم :

ـ هذا شيء جميل .. جميل جدا ..

ـ ولا أخفى عنكم اننى كنت مهتما فى المدة الاخيرة بهذه الهندسة الرباعية الابعاد ، ووصلت الى نتـائج بعضها طريف بل غريب .. فهاهى ذى مثلا صورة انسان وهو فى العام الثامن من عمره ، وصورة أخرى له وهو فى العـام الخامس عشر ، وصورة ثالثة وهو فى العام السابع عشر ، وصورة رابعة وهو فى العام الثالث والعشرين ، وهلم جرا .. وجميع هذه الصور عبـــارة عن قطاعات من وجود هذا الشخص فى المكان ، أى وجوده فى الابعـاد الثلاثة .

ولكن الوجود الحقيقى التام لهـــذا الشخص لايمثله أى قطاع من هذه القطاعات ، لانه وجـــود ذو أبعاد أربعة لا ثلاثة فقط !

وتمهل رحالة الزمن قليـــلا ، كى يترك فرصـــة امام مستمعيه لهضم ما تقدم من عباراته .. ثم واصل كلامه قائلا :

ــ ان رجال العلم يعرفون تمام المعرفة أن الزمن ماهــو الا نوع من أنواع المكان .. وها هو مثلا رســم بيانى من النوع الشائع جدا بين الناس يمثل التغييرات الجوية ، وهذا الخط الذى أتتبعه باصبعى يبين حركة مقيـــاس الحرارة أو مقياس الضغط .. فأمس صباحا كان الضغط مرتفعا جدا ، ثم انخفض أمس مساء ، ثم أرتفع مرة أخرى هذا الصباح . وبطبيعة الحال لم يكن الزئبـــق الموجود داخل مقياس الضغط هو الذى رسم هذا الخط البيانى فى اى بعد من الابعاد المعروفة بأبعاد المكان ، ولكن هــذا الزئبق رسم خطا شبيها بهذا الخط الذى أمامنا .. وقد رسمه بالتأكيد فى بعد غير أبعاد المكان الثلاثة .. هو حقا البعد الرابع أو البعد المعروف فى لغتنا باسم الزمن

وكان المتحدث فى هذه المرة رجـــلا من رجال الطب ، قال :

ــ ولكن اذا كان الزمن حقا مجرد بعد رابع من أبعـــاد المكان ، فلماذا كنا دائما نعتبره شيئـــا مختلفا تماما عن المكان ومنفصلا عنه .. ولماذا لا نستطيع التحرك فى الزمن كما نتحرك فى أبعاد المكان الاخرى على هوانا ؟

فابتسم رحالة الزمن وقال :

ـ وهل أنت متأكد من أننا نستطيع التحرك فى المكان بشتى أبعاده الثلاثة على هوانا ؟ . اننا نستطيع أن نتحرك على هوانا يمينا ويسارا والى الامام والى الخلف .. وهذا ما كان الناس يمارسونه دائما فى حركاتهم كلما شاءوا . ولهذا أوافقك على أن الانسان يتحرك على هواه فى بعدين فقط من أبعاد المكان هما الطول والعرض .. أما الحركة الى أعلى والى أسفل ، ارتفاعا وهبوطا ، فليس الامر فيها رهنا بمشيئتنا ، لان الجاذبية الارضية تقف فى وجهنا وتضع لحركاتنا علوا وسفلا حدودا وقيودا ..

فاعترض الطبيب قائلا :

ـ ليس هذا الكلام صحيحا على اطلاقه .. فهناك البالونات والطائرات

ـ اذا رجعنا الى الوراء قليلا ـ أى الى ماقبل ابتكار هذه المخترعات ـ فاننا نجد ان الانسان كان لا يستطيع التحرك الى اعلى الا على صورة قفزات اجتهادية متعبة

ـ هذا لاينفى على كل حال أن الحركة الى أعلى كانت ممكنة بصورة ما ، وكذلك الى أسفل ، لان من يقفز الى أعلى يهبط ثانية الى أسفل ..

ـ مع فارق واضح بين الارتفاع والهبوط .. فالارتفاع شاق ، ولكن الهبوط سهل ميسور بلا جهد ..

فقطب الطبيب حاجبيه قليلا ، وقال بشىء من الحدة :

ـ ولكنك على كل حال لا تستطيع أن تتحرك بأى صورة من الصور فى الزمان .. لا تستطيع أن تخرج قيد أنملة من اللحظة الحاضرة ! ..

فزادت نبرات رحالة الزمن عزيمة واصرارا ، وهو يرد عليه قائلا :

ــ وهذا ياسيدى العزيز هو موضع خطئك بالضبط ! هذا بالضبط هو موضوع خطأ جميع الناس حتى الان .. فنحن فى الحقيقة دائما مانخرج من اللحظة الحاضرة ..

وعندئذ قاطعه العالم النفسانى قائلا :

ــ ولكن هذه هى المشكلة ! .. من المفروغ منه أنك تستطيع أن تتحرك فى أى اتجاه أو بعد من أبعاد المكان .. اما الزمن فلا يمكنك أن تتحرك فيه او تتجول كما تفعل فى المكان !

ــ وهذا بالذات هو جوهر اكتشافى الجديد ، اكتشافى الهائل الخطير ! ولكنكم تخطئون أكثر ، اذ تقولون أننا لا نستطيع ان نتحرك أو نتجول فى الزمن .. فأنا مثلا اذا استرجعت فى ذهنى أى حادث مضى استرجاعا واضحا جليا ، أكون بذلك قد رجعت فى الزمن الى لحظة وقوع ذلك الحادث .. وهذا أشبه بقفزة لا الى أعلى بل بقفزة الى الماضى ، قفزة الى الخلف فى الزمن تجعلنى أبدو شارد الذهن .. وجميع الحيوانات لم تستطع التغلب على قيود الجاذبية التى تمنع البقاء فى الهواء .. ولكن الانسان المتحضر استطاع اخيرا التغلب الى حد ما على هذه الصعوبة باختراع البالونات والطائرات ، فلماذا نجزم مقدما بأنه من المستحيل على الانسان المتحضر ان يجد وسيلة من الوسائل تمكنه من البقاء فى الماضى أى مدة من الزمن يريدها ؟ .. واذا وجد هذه الوسيلةالمبتكرة فلماذا لا يستخدمها أيضا فى الرحلة فى الإتجاه المضاد للماضى : فى المستقبل ؟!.

فصاح فيلبى :

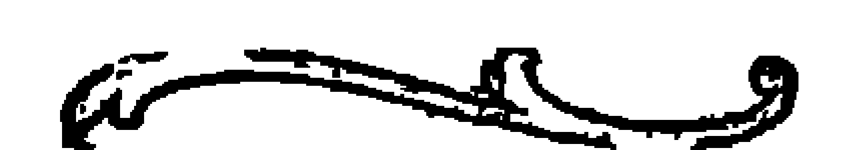
ـ أوه ! هذا كثير ! . .

ـ لم لا ؟ . .

ـ لانه ضد العقل ! لانه غير معقول !

وبهدوء تام سأله رحالة الزمن :

ـ ضد أى عقل ؟ . . أى معقول ؟



مسالة برهان

صاح فيلبى قائلا :

ــ اسمع ! فى وسعك أن تبرهن بالجدل على أن الابيض أسود .. ولكنك لن تصل الى اقناعى بأن الابيض أسود..

وبهدوء أيضا قال رحالة الزمن :

ــ ربما .. ولكنك الان على كل حال ترى بوضـــوح الموضوع الرئيسى لمـــا قمت به من أبحاث فى الهندســة الرباعية الابعاد .. وعندى منذ أمـد طويل فكرة أولية عن آلة ..

فصاح الشاب الحديث السن الذى يدخن السيجار :

ــ تجوب بها أنحاء الزمن ! ؟ ..

ــ آلة فى وسعها أن تجمع المكان والزمان فى أى بعد من الابعاد ، أو اتجــاه من الاتجــاهات ، على حسب مشيئة السائق ..

واكتفى فيلبى بضحكة أطلقها ، وكأنه يقول :

ــ هذا كله كلام فى كلام ..

وأدرك رحالة الزمن هذا المغزى ، فقال بهدوء :

ــ وليس هــذا مجرد كلام .. لانى قمت بتحقيقــه واثباته عن طريق التجربة !

فتململ العالم النفسانى فى مقعده قليلا وقال

ـ أن صح هذا فستكون له فائدة كبـــرى بالنسبـــة للمؤرخ .. اذ سيكون فى وسعه أن يرجع فعلا الى الوراء فى الزمن ليتحقق بنفسه ـ وعلى الطبيعة ـ من الاحداث الهامة والمواقع الحربية التى كثر حولها الجدل من غير أن ينتهى الى نتيجة حاسمة ..

ثم استطرد العالم النفسانى باسما :

ـ ما أبرع الخيال ! وما اسرع مايشتط بنا حين يفتح باب المستقبل أمام أعيننا ! ..

فقال الرحالة :

ـ هذا ماحسبت حسابه ، ولذا لم أبح بسرى لانسان الى أن جربته ..

فصحت مأخوذا :

ـ أتعنى انك جربت هذه الرحلات فى الزمن حقا ؟ !

وصاح الآخرون وفى مقدمتهم العالم النفسانى :

ـ عليك بالبرهان !.. هات التجربة العملية !.. فهذا كله فى الغالب شقشقة لسان ليس عليها برهان !

فابتسم رحالة الزمن ابتسامة غامضة ، تفيض بعشرات المعانى .. ثم أدار الينا ظهره فى صمت ، وغادر الحجرة شأن من قبل التحدى .. ومضى فى طريقه ليأتى بالدليل العملى الذى يفحم المعارض ويخرس اللسان !

***

وجلسنا كلنا ونحن فى حيرة شـديدة من أمر صديقنا

الغريب الاطوار ، وكل منا يجهد ذهنه فى تخيل ما سيطلع علينا به .. وأطلق فيلبى دعابة ساخرة ، لم يكد يتمهـا حتى عاد الينا الرحالة وفى يده جسم معدنى لامع لايزيد حجمه على حجم ساعة متوسطة من ساعات الحائط ، وفى هذه الآلة أجزاء مصنوعة من العاج وأجزاء أخرى من مادة بللورية شفافة .. وتناول الرحالة احدى الموائد الصغيرة المتناثرة فى الحجرة فوضعها أمام النار .. وفوق هـذه المنضدة وضع الآلة الغريبة التى تركزت عليها ابصارنا ..

ثم قرب منها مقعدا جلس فيه ..

وكان فوق تلك المنضدة أيضا مصباح صغـير يسقط ضوءه الوهاج فوق الجهاز موضوع التجربة .. وكان فى الحجرة أيضا مالا يقل عن اثنتى عشرة شمعـــة مضاءة وموزعة بحيث كان النور فى الحجرة كافيا جدا . وجذبت المقعد الذى كنت أجلس فيه بحيث صار فى موضع متوسط بين النـــار المشتعلة فى المدفأة وبين رحالة الزمن . ومن خلف رحالة الزمن جلس فيلبى ، وأخذ يتطلع من فـوق كتفه الى الجهـاز .. وعن يمـين الرحالة جلس الطبيب والعمدة الريفى ، وعن يساره جلس العـالم النفسانى . وأما الشاب الحديث السن الذى يدخن السيجار ، فوقف وراء ظهر العـالم النفســانى .. وكنا جميعـا فى منتهى اليقظة ، فلم يخامرنى الشك فى أنه لا مجال لحدوث أى تلاعب ، أو نجاح اى خدعة ، على ضوء تلك الظروف ..

ورفع رحالة الزمن بصره الينا ، ثم نظر الى الجهاز ولم يتكلم ..

فقال العالم النفسانى يستحثه :

ــ وبعد ؟ ..

فوضع الرحالة مرفقيه فوق المنضدة الصغيرة ، وضم راحتيه فوق الجهاز وقال :

ـ هذا الجهاز الصغير ليس الا نموذجا للآلة المنشودة .. وفى هذا النموذج وضعت تصميم آلة الزمان كاملا ، وهو كما ترون نموذج غريب لا أظنكم رأيتم له شبيها من قبل ..

ونهض الطبيب من مقعده وحدق فى الجهاز بنظرات فاحصة وقال :

ـ أنه حقا جميل الصنع ..

واستطرد الرحالة يقول :

ـ واستغرق اعداده عامين .. وكل رافعة من روافعه مصنوعة من مادة معينة . والان أريد منكم أن تتبينوا وظيفة كل رافعة منها ، فهذه مثلا عند الضغط عليها تقذف بالجهاز فيشق حجب المستقبل ويوغل فيه . وتلك الرافعة الاخرى عند الضغط عليها تتخذ الآلة اتجاها عكسيا ... وهذا السرج هو عبارة عن المقعد الذى يجلس فيه من يجوب الزمن بواسطة هذا الجهاز .. والآن سأضغط على الرافعة الاولى وستنطلق الالة فتختفى بين طيات المستقبل . فانظروا الى الآلة جيدا وانظروا الى المنضدة ايضا ، وتحققوا من أنه ليس فى الامر أى خدعة فانا لا اريد ان افقد هذا النموذج ، ثم يبرز لى منكم من يقول انى محتال أو نصاب !

وساد الصمت دقيقة كاملة تقريبا .. ثم مد الرحالة سبابته نحو الرافعة ، ولكنه عدل عن ذلك فى آخر لحظة قائلا :

ـ كلا .. بل أعرنى أنت يدك ..

ثم التفت نحو العالم النفسانى ، فتناول يده وطلب منه أن يمد سبابته .. فكان العالم النفســـانى هو الذى أطلق نموذج آلة الزمان فى سفرتها التى لا أوبة منها ولا نهاية لها ..

ورأينا كلنا الرافعة وهى تتحرك .. وانى لواثق تمام الثقة انه لم تكن هناك خديعة . ثم هبت نسمة من الهواء، واختلجت أضواء الشموع وانطفأت احداها والآلة الصغيرة تدور حول نفسها بسرعة عظيمة بحيث اضطربت معالمهـــا فلم يعد منها سوى شبح . وبعد لحظة واحدة اختفت عن الانظار تماما كأنما ذابت فى الهواء ، وخلت المنضدة من كل أثر لها ..

وسكتنا مبهوتين نحو دقيقة كاملة .. ثم أطلق فيلبى لعنات عبر بها عن ذهوله . وعندئذ أفاق العالم النفسانى وثاب الى رشده ، وأخذ ينظر تحت المنضدة وقد فغر فاه وعينيه .. فضحك رحالة الزمن من كل قلبه ، ثم نهض واتجه الى قدر فوق رف المدفأة يحتفظ فيها بالطباق . وأولانا ظهره ، وشرع يحشو غليونه بهدوء ..

وتبادلنا النظرات فيما بيننا .. ثم قال الطبيب :

ــ اسمع ياصاح ! . هل أنت جاد حقا فى هذه المسألة ؟ أتعتقد بصفة جدية أن آلتك تلك انطلقت من هنا لتجـوب الزمن ؟

فقال رحالة الزمن ، وهو ينحنى ليشعل غليونه بعود أوقده من نار المدفأة :

ــ طبعا .. بل عندى لكم ماهو أكثر من هذا .. عندى آلة كبيرة من هذا الجهاز أوشكت أن أفرغ من صنعها .

وعندما يتم تجهيزها أنوى أن أستقلها فى رحلة خاصة أجوب فيها الزمان ذهابا وايابا .. الى الخلف والى الامام !

فصاح فيلبى :

ــ أتعنى أن جهازك هذا يجوب الآن المستقبل ؟

ــ أو الماضى .. لا أدرى ايهما على كل حال ! .. وكأنما هبط الالهام على العالم النفساني ، فهتف :

ــ لابد أن الجهاز الآن يجوب الماضى لا المستقبل ! .

ــ لماذا ؟ ..

ــ لو كان يجوب المستقبل لصار الآن هنا .. لاننا الآن فى المستقبل فعلا بالنسبة للحظة التى انطلق فيها الجهاز !

فقلت أنا معترضا :

ــ ولكن لو انه اتجه الى الماضى لكان باديا لاعيننا عندما دخلنا هذه الحجرة الليلة لاول مرة .. بل لكان باديا لأعيننا يوم الخميس الماضى ويوم الخميس الذى قبله وكل يوم من أيام الخميس التى تعودنا أن نجتمع فيها هنا !

فهز العمدة الريفى رأسه بوقار ، وقال وهو ينظر الى الرحالة :

ــ اعتراضات معقولة ياسيدى

فقال الرحالة بهدوء :

ــ بل لا أساس لها على الاطلاق .. وصديقى العالم النفسانى يستطيع أن يؤكد لكم أن هناك حدودا خاصة للابصار عند البشر . وخارج هذه الحدود لانستطيع أن نرى الاجسام ، فاذا دار الشىء بسرعة عظيمة جدا حول

نفسه وزادت هذه السرعة لم نر هذا الشيء بعد حد معين من حدود السرعة.. انظروا الى ذراع المروحة الكهربائية، وكيف يتميع شكله عند دورانها ،فاذا زادت سرعة الدوران عن حد معين لم نر لذراع المروحة أثرا فكأنه غير موجود .. وكذلك الرصاصة المنطلقة فى الهواء لا نراها لسرعتها المفرطة . فاذا فرضنا ان هذا الجهاز يتحرك مخترقا سرعة الزمان بسرعة تزيد عن سرعتنا مائة ضعف أو أكثر ، سندرك أن الجهاز يقطع دقيقتين كلما قطعنا نحن ثانية واحدة من زمننا .. وأنه يقطع الساعتين كلما قطعنا نحن دقيقة واحدة من زمننا ، فكأن نسبة ظهوره لاعيننا ستكون جزءا على مائة من ظهوره لاعيننا حين كان معنا فى زمن واحد فوق هذه المائدة .. واظن أن هذا واضح !

ونظر الى عيوننا المحملقة الفاغرة ثم أطلق ضحكة ،وأراد ان يخفف عنا ذهولنا فقال :

ــ هل تحبون ان تلقوا نظرة على آلة الزمان التى أصنعها ؟

ونهضنا كلنا واقفين كأنما يحركنا جميعا لولب واحد.. فقادنا فى دهليز طويل رطب الى معمله ، فاذا بنسخة كبيرة من ذلك الجهاز الصغير الذى رأيناه يختفى أمام اعيننا منذ قليل . وكانت بعض أجزاء هذا الجهاز من النيكل، وبعضها الآخر من العاج ، والبعض من البللور الطبيعى وهو نوع نادر من الصخور

وكان الجهاز فى جملته يكاد يكون تاما .. بيد ان الروافع لم تكن قد ركبت بعد ..

وكان منظرها غريبا .. فتناولت احداها لافحصها عن كثب ، وخيل الى انها مصنوعة من الكوارتز .. وهو نوع

من الصخور شديد الصلابة

وسأله الطبيب مرة أخرى :

ــ قل لى .. هل أنت جاد تماما فى هذه المسألة ، أم هى ألعوبة أخرى من الاعيبك التى تتحفنا بهــا بين الحــين والحين .. ومن قبيل ذلك ، الشبح المزعوم الذى أريتنا اياه فى عيد الميلاد الماضى ؟

فقال رحالة الزمن بكل رزانة وثبات :

ــ انى أنوى على متن هذه الآلة ، عند الفراغ من تجهيزها ، أن اكتشف الزمن وأرتاد خوافيه ماضيا ومستقبلا .. فهل هذا الكلام واضح ؟ انى لم أكن أقرب الى الجد منى الآن !

وسكتنا لا ندرى ماذا نقول .. ثم لمحت عينى فيلبى وهو يرنو الى من فوق كتف الطبيب .. فغمز لى بحركة ذات مغزى ، كأنه يقول لى :

ــ دعك منه !

والحقيقة أننى لا أظن احدا منا فى تلك الليلة آمن بآلة الزمن المزعومة ..

والحقيقة أن رحالة الزمن كان من ذلك الطراز الذكى من الناس الذى لا يثق الناس به لفرط ذكائه .. فهناك دائما مايدعوك الى الارتياب فى أمره والاحساس بأنه لا يظهرك على جميع أفكاره ونواياه ، وانك معرض فى أية لحظة لان تجد نفسك واقعا فى فخ من فخاخه التى يخفى امرها متظاهرا بالبرآءة والصراحة التامة ..

فلو أن فيلبى مثلا هو الذى قدم الينا نموذج الجهاز ، وشرح لنا النظرية بألفاظ الرحالة وعباراته لكان ارتيابنا فى

جدية كلامه أقل بكثير .. وهكذا تكون براعة المرء جانية عليه ، او يكون ذكاء المرء محسوبا عليه

وبسبب هذا الارتياب ، كتم كل منا المسألة فى صدره ولم يبح بها لاحد فى الفترة الواقعة بين سهرة ذلك الخميس وسهرة الخميس التالى .. فهذاهو موعدنا الاسبوعى على مائدته للعشاء معا ، وان كانت غرابة الموضوع طبعالم تفارق أذهاننا لحظة واحدة طول ذلك الاسبوع .. وكل منا يحاول بينه وبين نفسه أن يجد حلا معقولا للغز الجهاز الذى اختفى أمام ابصارنا . ولكن جهودنا وظنوننا على تباينها ذهبت ادراج الرياح



أين ذهب ؟

لما حل يوم الخميس التالى ذهبت كالعادة .. ولكنى وصلت متأخرا فوجدت أربعة رجال او خمسة مجتمعين فى حجرة الجلوس ، وكان الطبيب واقفا أمام نار المدفأة وفى احدى يديه ورقة ، وفى يده الاخرى ساعته .. فتلفت حولى بحثا عن رحالة الزمن فلم أجده . وقال الطبيب على الاثر :

ــ ان الساعة تجاوزت الآن منتصف الثامنة .. وأعتقد انه من المستحسن أن نبدأ بتناول العشاء ..

ــ وأين رب البيت ؟

ــ الامر غريب حقا .. لابد ان عائقا احتجزه عن الحضور فى الوقت المناسب ، وهو فى هذه الرسالة يطلب منى أن أنوب عنه فى الجلوس معكم الى مائدة العشاء اذا لم يكن قد عاد الى بيته فى تمام السابعة .. ويقول أيضا انه سيوضح كل شيء عند حضوره ..

فقال أحد الحاضرين ، وهو رئيس تحرير صحيفة يومية معروفة :

ــ من المؤسف أن نترك طعام العشاء يفسد ويذهب رونقه بالانتظار ..

فرن الطبيب الجرس ايذانا ببداية الطعام ..

وكان العالم النفسانى والطبيب وأنا الذين كنابين اعضاء السهرة الماضية .. اما الآخرون فكانوا رئيس تحرير تلك الصحيفة اليومية الذى أشرت اليه ، وصحفى آخر ، وشخص خجول ذو لحية لم أكن اعرف من هو .. وفيما اذكر لم يفتح هذا الرجل فمه ذلك المساء بكلمة واحدة ..

وعلى المائدة كثرت التخمينات حول سبب غيـــاب الداعى .. وعندئذ قلت على سبيل المزاح :

ـ لعل المسئول عن غيابه رحلة من رحلاته فى الزمن!

فأرهف رئيس التحرير أذنيه ، واستفسر عن معنى هذا الكلام .. فتطوع العالم النفسانى باعطاء صورة مقتضبة للموضوع الذى شهدناه بأعيننا منذ أسبوع ..

وفيما هو مسترسل فى الشرح ، انفتح الباب المفضى الى الدهليز ببطء وبغير صوت .. وكنت أنا فى مواجهـــة الباب فلاحظت ما حدث وقلت :

ـ مرحى ! .. ها هو أخيرا !..

وانفتح الباب عندئذ على سعته وبرز أمامنا الرحالة .. وأطلقت صيحة دهشة ..

فنظر الطبيب نحوه وقال :

ـ رباه ! .. ماذا حدث بالله يا رجل ! ؟

وحول الجالسون جميعا أبصارهم نحو الباب المفتوح..

كان الرحالة فى حالة تدعو الى الدهشة حقا ، فمعطفه قذر مغطى بالغبار ، وكماه ملطخان باللون الاخضر ، وشعره مشعث دب فيه الشيب ، أو لعله الغبار المتراكم .. لون شعره فأصبح اقرب الى اللون الرمادى . اما وجهه فكان

شديد الشحوب ، وفى ذقنه جرح كبير فى طريقه الى الاندمال وسحنته تنبىء عن الذهول والتداعى والمعاناة القاسية

وظهر عليه التردد وهو واقف فى فرجة الباب ، كأن ضوء القاعة الباهر أزاغ عينيه .. ثم دخل وهو يترنح ويعرج ، فكانت مشيته أشبه بمشية المتسولين المتشردين الذين أدمت اقدامهم المسافات الطويلة التى قطعوها حفاة أو شبه حفاة .. !

وحملقنا فيه صامتين .. فى انتظار أن يبدد دهشتنا بالكلام ، ولكنه لم يقل شيئا .. بل جلس الى المائدة وتناول كأسا تجرعها عن آخرها دفعة واحدة .. ويبدو أنها جددت قواه قليلا ، فراح يجيل بصره فى الجالسين الى المائدة . ثم لاح على شفتيه شبح ابتسامته المعهودة ..

وهتف به الطبيب :

ـ ماذا فعلت بنفسك يا رجل ؟

ـ لا تقطعوا طعامكم بسببى .. انا بخير .. سأشرب كأسا اخرى ، ثم أنهض واغتسل واغير ملابسى ، ثم أعود اليكم لاوضح لكم كل شىء وأنا آكل ما ستتفضلون بالابقاء عليه من اللحم المشوى .. فانى جائع جوع الضوارى !

وضع الرحالة كأسه ثم اتجه نحو الباب .. فلاحظت أنه لم يزل يعلو قليلا ، وليس لقدميه وقع ينم عن الصلابة كالمعتاد .. فنهضت واقفا فى موضعى ، وتطلعت الى قدميه وهو منصرف ، فوجدتهما عاريتين تماما الا من جورب مهلهل مخضب بالدماء !..

وواراه الباب عنى وعن سائر المدعوين حين اغلقه خلفه ، ونازعتنى نفسى ان الحق به لاتبين امره .. ولكنى تذكرت

فى آخر لحظة أنه يكره أن يهتم احد به ، لان فرط الاهتمام بأمره يزعجه جدا ..

واخالنى ذهلت عمن حولى نحو دقيقة تقريبا .. كان فكرى فى خلالها يحاول جمع شتات الفروض المتباينة ،ولم أطراف الخيوط المتفرقة فى هذا اللغز عسي أن يؤدى ذلك الى نسج قصة معقولة تفسر ما حدث ..

وافقت من ذهولى هذا على صوت رئيس التحرير الذى كان جالسا قبالتى على المائدة وهو يقول بنبرة متحمسة :

ـ سلوك شاذ من عالم مرموق ! ..

فأدركت أنه بحكم العادة التى اكتسبها من مهنتـــه ، يفكر فى الموضوع الذى يشغل ذهنى بلغة عناوين الصفحة الاولى وما تتطلبه من اثارة صحفية .. فردنى ذلك الى عالم الواقع الذى يتمثل فى مائدة العشاء الانيقة ومن التفوا حولها من خيرة الناس ..

ورفع الشاب الصحفى حاجبيه فى دهشـــة ، وقال متهكما :

ـ ما الحكاية بالضبط ؟ .. هل كان داعينا الفاضـل مشغولا عنا بهواية جمع البيض من أقفاص الدجاج وأعشاش الطيور ؟ ..

واختلست أنا نظرة الى العالم النفســـانى .. فقرأت فى عينيه صورة مطابقة للخاطر الذى جال بفكرى .وحلقت خواطرى لتحوم حول رحالة الزمن المسكين ، وهو يصعد السلالم الى مخدعه بخطواته العرجاء والالم يحز فى قدميه. ولا اعتقد أن أحدا سواى لاحظ مالاحظته عليه من دلائل ذلك العرج ..

وكان أول من أفاق تماما من ذهوله هو صديقنا الطبيب الذى رن الجرس ـ فرحالةالزمن يكره أن يقوم الخدم حول المائدة أثناء العشاء ـ وطلب طبقا ساخنا . وكانت تلك الحركة ايذانا لبقية المدعوين .. فأعمل رئيس التحرير الشوكة والسكين فى قطعة اللحم التى أمامه وهو يزمجر . اما الرجل الصامت ذو اللحية ، فاقتدى به فى الاكل وان لم تصدر عنه زمجرة مسموعة .. واستأنف الباقون تناول الطعام ، وتكلفوا تجاذب أطراف متثاقلة من الحديث كانت تتفكك فيسود الصمت بين لحظة وأخرى ، وتبدو عندئذ علائم الحيرة واضحة على جميع الوجوه . وأخيرا لم يطق رئيس التحرير صبرا وصاح :

ـ هذه تصرفات عجيبة لا افهم لها معنى ! فهل لصاحبنا أوجه نشاط سرية يمارسها لمضاعفة دخله أو شىء من هذا القبيل ؟ ..

واندفع لسانى فى حلقى فقلت :

ـ أكاد اجزم بأن لهذا السلوك صلة بموضوع آلة الزمان!

ورأيت الدهشة تطل من جميع العيون ، ولم يعد هناك بد من التصريح .. فشرعت أدلى ببيان موجز عن سهرتنا السابقة فى مثل هذا المكان ، ولم يصدق الضيوف الجدد ما سمعوه .. وكان أشدهم انكارا وسخرية رئيس التحرير ، اذ قال :

ـ ماهذا التخريف ؟ من الذى يستطيع أن يجوب الزمان؟ وهل يتسربل الانسان بالتراب والوحل وسائر أنواع الاقذار لمجرد اقدامه على التمرغ فى خرافة يقطع العقل باستحالتها ؟

ولما سكتنا تساءل رئيس التحرير قائلا :

ـ ما أتعس حظ احفادنا ! يبدو أن دنيا المستقبل لا تستخدم فيها الحمامات ولا فرشاة الملابس !

ولم يكن الصحفى الشاب أقل من رئيس التحرير انكارا وتسخيفا لكلامي ، وانضم الى زميله الكبير فى مهمته السهلة ، وهى التهكم على الفكرة كلها من أساسها بلامبالاة وبلا احتياط أو روية .. وهى الصفات الغالبة على الصحفى الحديث الذى يعتبر مستواه فى الجهل أساسا صالحا لتحريم أى فكرة علمية تعلو فوق ذلك المستوى ..

وكان الصحفى الشاب يقهقه قائلا لرئيس التحرير :

ـ ما أبدعها فكرة يا سيدى ! .. أن تكتب فى بداية أى برقية أو خبر : « لمراسلنا الخاص فيما بعد غد » ! وبهذا نسبق جميع صحف العالم !

واذا برحالة الزمن يعود الى حجرة المائدة ، وقد ارتدى ملابس السهرة المعتادة .. ولم يكن يبدو عليه أى أثر ينم عما وقع له من التغيير الذى أدهشنا ، سوى نظرة زائغة بعض الشيء ..

واستقبله رئيس التحرير ضاحكا مقهقها فى تفكه :

ـ كان اصحابك يقولون عنك انك كنت مسافرا فى رحلة الى أواسط الاسبوع القادم ! .. فحدثنا من فضلك عن نتيجة السباق الكبير الذى سيجرى بعد ثلاثة أيام ! وكم تتقاضى ثمنا لهذا النبأ ؟..

ولم يجب رحالة الزمن ، بل قصد الى مقعده الشاغر وهو ساكت . ولما جلس قال بهدوئه المعهود وهو يتلفت منقبا بين الصحاف :

ـ اين نصيبى من اللحم المشوى ؟ ماأجمل ان يغرس الانسان شوكته مرة أخرى فى قطعة لحم حقيقية !..

فصاح رئيس التحرير :

ـ نريد سماع القصة !

ـ لعنة الله على القصة ! .. أريد شيئا آكله ! .. ولن اقول كلمة واحدة قبل ان تحصل خلاياى وعروقى على ما يلزمها من البروتين .. هذه القطعة كافية ،شكرا لك.. والآن قرب منى الملح من فضلك ..

ولم أطق صبرا فسألته :

ـ لا اريد منك الا كلمة واحدة ، هل كنت تجوب الزمن؟

فقال رحالة الزمن وفمه مملوء باللحم وهو يهز رأسه مؤكدا :

ـ نعم ! ...

فقال رئيس التحرير :

ـ أنا على أتم استعداد لدفع شلن عن كل سطر من سطور المقال الذى تكتبه فى هذا الموضوع ، شلن عن كل خمس كلمات !

ودفع رحالة الزمن كأسه بيده نحو الرجل الصامت ثم دق عليهابظفره وهو ينظر اليه.. فأجفل الرجل وكأنه تنبه من شرود طويل، ثم صب للرحالة شيئا من الخمر ..

وساد الصمت بقية مدة العشاء ، وكان الجو مشحونا بالقلق .. اما انا فكانت الاسئلة المتباينة تثب الى شفتى

فلا أردها عن الانطلاق الا بصعوبة شديدة . واعتقد ان هذا هو حال المدعوين الآخرين جميعا ..

وحاول الصحفى الشاب ان يخفف من حدة التوتر برواية نوادر ونكت معادة ، اما رحالة الزمن فانصرف كل الانصراف الى عشائه وجعل يأكل بشهية الضوارى ..

وأشعل الطبيب سيجارة وراح يرقب الرحالة من بين أهدابه ، وازداد وجوم الرجل الصامت واكثر من تجرع الشمبانيا ليغرق فيها توتر اعصابه ..

واخيرا دفع رحالة الزمن صحفته بعيدا ، ثم اجال بصره فينا وقال :

ــ أعتقد أننى يجب أن اعتذر .. والحقيقة اننى كنت فى شدة الجوع ، وقد مرت بى ظروف عجيبة للغاية ..

واخرج من جيبه سيجارا قطع طرفه ، ثم قال :

ــ ولكن هيا بنا أولا الى قاعة التدخين ، فالقصة أطول من أن تروى أمام أطباق فيها بقايا طعام ..

ورن الجرس ، ثم قادنا الى القاعة المجاورة .. وجلس كل منا فى مقعد وثير ، واضطجع الرحالة فى مقعده وخاطبنى قائلا وهو يشير الى الضيوف الثلاثة الجدد :

ــ هل أخبرت بلانك وداش وتشوز بخبر الآلة ؟

فصاح رئيس التحرير :

ــ ولكن المسألة كلها هراء وتخريف ..

ــ لا قدرة لى الليلة على المجادلة ، وليس عندى مانع من ان اروى لكم القصة على علاتها .. اما المجادلة فــلا

أستطيعها . ولذا سأقص عليكم ما حدث لى ان شئتم ذلك . ولكن بشرط ان تتعهدوا بعدم المقاطعة ، فأنا أريد أن أنفض تلك الحكاية عن صدرى .. وبى الى ذلك حاجة شديدة ، وان كان معظم مافى القصة سيبدو لكم ضربا من الاكاذيب . فليكن اذن ! .. انها مع هذا قصة صادقة ، كل كلمة فيها هى عين الصدق .

وسكت الرحالة قليلا ثم قال :

ـ كنت فى معملى فى الساعة الرابعة بعد الظهر .. وفيما بين الساعة الرابعة ولحظة الدخول عليكم عشت ثمانية أيام لم يعش يوما من قبيلها أى انسان من قبل ! انى أكاد أسقط من شدة الاعياء .. ومع هذا لن يغمض لى جفن حتى أسرد على مسامعكم ذلك الامر وبعدئذ سأذهب الى فراشى توا ، ولكن لا تقاطعونى وأنا أتكلم .. لا مقاطعة ! مفهوم ؟ ..

فقال رئيس التحرير :

ـ وهو كذلك ! ..

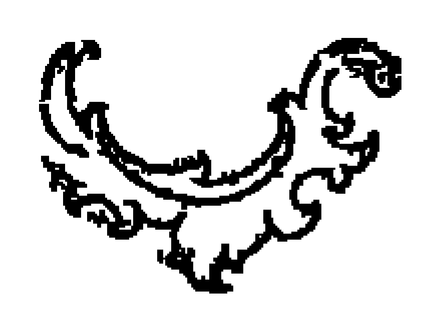
وضحكنا كلنا فى اثره وقلنا :

ـ وهو كذلك ! ..

وبهذا بدأ رحالة الزمن قصته كما سأسجلها فى هذه الصفحات ، بعد أن اضطجع فى مقعده .. وكان يتكلم بلهجة الرجل الذى نال منه الاجهاد الشديد فى بداية الامر ، ثم لم يلبث ان تحمس لما يقول شيئا فشيئا . وانى لاشعر وأنا أسجل كلامه بعجز القلم ـ وعجز حامل القلم قبل كل شيء ـ عن التعبير عن شحنة الحماسة والقوة والاخلاص التى فى صوته ، والقارىء مهما حصر انتباهه فى السطور

التى سيقرؤها لن يستطيع على كل حال ان يرى كما رأيت وجه قائلها حين نطق بهذه الكلمات وقد ازداد شـــحوبا على شحوب .. ولن يصافح أذنيه وقع ألفاظه ..

وكنا نحن الحاضرين نتبادل النظرات بين الحين والحين فى الفترة الاولى من القصة ، ثم كففنا عن ذلك واســـتأثر باهتمامنا وأنظارنا وجه محدثنا رحالة الزمن ..



القسم الثاني

رحلة لا نظير لها

الانطلاق

قال رحالة الزمن وهو ينفث دخان سيجاره :

« أخبرت فريقا منكم فى يوم الخميس الماضى بفحوى المبادىء الاساسية التى بنيت عليها مشروع آلة الزمان .. ثم أطلعتهم على تلك الآلة نفسـها ولم يكن قد انتهى صنعها تماما .. ولم تزل الآلة هنـاك . وقد عادت الى احتلال مكانها فى المعمل ، بعد أن نالت منها مشقات السفر بعض الشىء والحق يقال .. وانكسر قضيب من القضبان العاجية والتوى مسمار نحاس ، أما بقية الجهـاز فلم يصبه عطب ...

« وكان فى حسبانى يوم الخميس الماضى ، انى سأفرغ من صنع الجهاز تماما فى اليوم التالى أى يوم الجمعة . ولكن عنـدما انتهيت من التجميع تقريبا يوم الجمعة ، اكتشفت أن قضـيبا من القضبان المصنوعة من النيكل أقصر مما ينبغى بمقدار بوصة بالضبط .. فكان لابد من اعادة صنع هـذا القضيب . وكان هذا هو السبب فى تأخير الفراغ من الجهـاز حتى صباح اليوم .. وكانت الساعة العاشرة صباحا بالضبط ، عندما تمت ولادة أول آلة للزمان فى العالم . وأقبلت عليها أعيد فحص أجزائها الدقيقة ، وقمت بتزييت جميع اللوالب والقضبان والمحاور ثم جلست فى المقعد المخصص للراكب . وانتابنى دوار خفيف .. وأحسب أن شعورى عنـدئذ كان أشبه شىء

بشعور المنتحر حين يضع مسدسه على جمجمته ، واصبعه على الزناد ، وتتضارب داخل جدران رأسه آلاف الاسئلة عما سيكون من أمره ! ..

« ووضعت احدى يدى على رافعة الانطلاق ، وقبضت باليد الاخرى على الفرملة .. وضغطت باليد الاولى قليلا ولكنى حركت اليد الاخرى فى الحال لأوقف الحركة . وانتابنى دوار شديد ، وأحسست بما يحس به من يرى فى الكابوس أنه يسقط من مكان شاهق . ولكنى عندما نظرت فيما حولى رأيت المعمل على ما كان عليه تماما .. فهل ترى حدث شيء ؟

« وخيل الى أن ذهنى فرد بى ، وعندئذ حانت منى نظرة نحو ساعة الحائط . وكانت قبل ذلك بلحظة ــ لحظة واحدة على حسب اعتقادى ــ تشير الى دقيقة أو دقيقتين بعد العاشرة ، فاذا بعقربيها يشيران الى ما بعد الثالثة بنصف ساعة تقريبا !

« واستنشقت نفسا عميقا وأطبقت أسنانى جيدا استجماعا لرباطة جأشى ، ثم ضغطت على محرك السرعة بيدى كلتيهما .. فانطلقت الآلة انطلاقا مفاجئا . وتميع منظر المعمل من حولى ثم أطبقت عليه الظلمة تماما ، ودفعت محرك السرعة الى أقصاه . فأطبق الليل فى غمضة عين ، وبعد لحظة واحدة طلع الغد ، وانقضى الغد فى لمحات ثم أطبق ليله بظلامه فلم يلبث الا هنيهة حتى تبلج منه يوم آخر تلاه ليل ثم نهار ثم ليل .. وكانت الاصوات المبهمة تطن فى أذنى . والضباب يتخلل تلافيف دماغى .. واخشى ألا يكون هناك احساس واضح عندى بذلك السفر الفذ الذى لم يسبقنى اليه انسان فى طوايا الزمن . وهو على العموم احساس سمج غير مستحب ، خلاصته شعورك

بأنك مندفع الى الامام.. ولا حيلة لك فى تلك الحركة السريعة التى لا تتوقف ولا تلوى على شىء

« ولم يكن هذا هو كل ما هناك ، لان احساسى فى الواقع لم يكن صرفا ، بل هو خليط غريب من عناصر متناقضة.. فكنت فى الوقت نفسه أتوقع فى فزع أن ينتهى هذا الاندفاع الاعمى بارتطام يمكن ان يقع فى أى لحظة . وكان توالى الليل فى أعقاب النهار والنهار فى أعقاب الليل .. لا النهار يدرك الليل ، والليل لا يدرك النهار .. أشبه بخفقات متواليات سراع من جناحى نسر أسود حالك السواد فى خوافيه ريشات بيضاء ، ولم يلبث كل أثر لجدران المعمل وأثاثه من حولى أن اختفى من عيانى ورأيت امامى الشمس فى كل ضخامتها تتخلى عن وقارها المعهود وتقطع قبة السماء فى وثبات كأنها هرولة مذعور ! فتقطع ما بين المشرق والمغرب فى دقيقة .. وتتوارى دقيقة أخرى لتبرز من المشرق وهكذا دواليك ، ورأسى يطن بفكرة مزعجة : أن كل دقيقة فى هذا الحساب تعنى يوما انسلخ من عمر الارض

« وخطر لى ذات لحظة ان المعمل لابد وأنه تقوض بفعل انطلاقة الآلة واننى لهذا السبب فى العراء ، وثقل ضغط الهواء على صدرى فاحسست باختناق ، كما كان توالى المناظر الخاطفة يسبب لعينى آلاما جساما .. ثم استطعت أن ألمح فى فترات الظلام القصيرة المتوالية شكل القمر وهو يتغير بالزيادة وبالنقصان فى دورات سريعة منتظمة ، فما أسرع ما يكتمل بدرا ليرتد كما كان هلالا فمحاقا ! والنجوم فى مساراتها كم بدت لى سريعة ليس فيها شىء من وقار حركاتها المألوف . ثم ازدادت سرعة الآلة فتداخلت حركة النجوم وبدت من فرط اندفاعها فى مساراتها وكأنها خطوط مضيئة متصلة متشابكة . وتداخل الظلام والنور ، فبدت

السماء لى على طول المدى رمادية اللون ليس فيها بياض بين ولا ظلام حالك . وسرعة الآلة لا تكف بعد ذلك كله عن الازدياد . .

« ولما نظرت الى أسفل رأيت المروج والاشجار فى حال لم ترها عين انسان . . رأيتها تنمو وكأنها منبثقة من باطن الارض يانعة الخضرة ثم اذا بها صفراء ، ثم تستعيد خضرتها وبين لحظة واخرى يدركها المشيب ثم تمسى هشيما تذروه الرياح !

« والصروح الشواهق والعمائر كنت أراها تتداخل ثم تتهادى فاذا بها بين لحظة واخرى اثرا بعد عين ، وكأنما هى حلم بددته اليقظة !

« كل شىء على وجه الارض كان يتغير بسرعة ، يتكون وينمو ويفسد فى لحظات قلائل تحت نظرى . . كما ألقيت نظرة على عداد السرعة فرأيته يشتط فى التسجيل ، ثم لاحظت أن مدار الشمس ينحرف أمام بصرى بين دقيقة واخرى . . فاستنتجت ان سرعتى اصبحت اكثر من سنة فى الدقيقة . وفى مدى الدقيقة الواحدة كنت أرى الثلج يغطى وجه الارض ، ثم يجلو عنه فتكتسى الربى والوهاد بخضرة الربيع اليانعة ثوان معدودات ثم يطغى الجليد على الدنيا مرة أخرى ! . .

« ولاحظت بعد قليل ارتجافا فى الآلة لم أعرف له سببا . . ولكن حالتى الذهنية لم تسمح لى بالتفكير فى شأنها ، لان نوعا فريدا من الجبن ازدادت سيطرته على تفكيرى ، فلم يعد لى تفكير الا بالايغال فى غياهب المستقبل . . .

« ولم أفكر اطلاقا فى التوقف ، لان هذه الاحساسات الفذة التى لم يمر بها انسان قبلى كانت تسكرنى ، ثم أضاء

فى ذهنى فجأة خاطر غريب : ادركت ان رحلتى بهــذه السرعة لن يكون لها محصول ثقافى .. فمن المستحيل أن أتبين ما طرأ على البشرية من تقدم او تأخر بفعل السنين المتوالية ، والارض والشمس تدوران من حولى بهـــذه السرعة الجنونية التى تخفى جميع المعالم والتفاصيل !

« وصار اهتمامى كله موجها نحو مصير حضارتنــا ومدنيتنا .. أريد أن أعـــرف ذلك المصير ! .. وكل ما استطعت أن أراه عبارة عن أبنية اعلى واضخم من جميــع ما عرفه زماننا من صروح ، ولكنى لم استطع ان اتبين كنه تلك الابنية وموادها .. فما كانت بسبب السرعة الفائقة الا مزيجا من الضباب والوميض ! ورأيت ألوانا من الخضرة اينع واغنى من كل مانعهده فى زماننا تنتشر على الروابى وفى السهول ، ولا تقوى عليها أعاصير الشتاء وصقيعه ، فعلمت أن مئات السنين القادمة حملت للانسان مزيدا من السلطان على قوى الطبيعة . وبدت لى الارض من خلال قناع الضباب الذى وضعته السرعة البالغة على نظرى أشد جمالا مما هى الآن ..

« كان ذلك أقصى ما استطعت أن أراه عن يقين ، وما أيسره وأقله . فزهدت نفسى فى الاسترسال ، وبدأ عقلى يفكر فى ايقاف الآلة ..

« وواجهت على الفور مجازفة خطيرة .. فربما وجدت فى الفضاء مادة تؤذينى أو تؤذى الآلة عند الوقوف ، ولم يكن أمر هذه المادة المجهولة يعنينى وأنا مندفع بتلك السرعة الفائقــة . ولكن الوقوف مسألة أخرى .. أين سيكون وقوفى ، وفى أى ظروف ؟ وما هى الحالة الكيماوية التى ستترتب على ذلك الوقوف ؟ أليس من المحتمل أن يحدث انفجار يقذف بى أنا وجهازى المبتكر خارج جميع الابعاد

الممكنة .. الى المجهول ؟

« لا أنكر أن هذا الفرض كان قد خطر لى مرارا وتكرارا وانا اصنع بيدى تلك الآلة ، ولكنى كنت أواجه فكرة ذلك الخطر بصدر رحب لانه جزء لابد منه من عناصر ذلك المشروع الكبير .. ولا بد مما ليس منه بد .. كما يقولون!

« ولكن هذا كله كان كلاما لا ضرر منه ونحن على الارض. أما فى الفضاء ، وقد صار الخطر وشيك الوقوع ، والمصير شبه محتوم .. فالخوف يزعزع أعماقى ، ولا أجد سبيلا الى استرجاع شيء من رباطة جأشى !

« كنت فى موقف لم يتعرض له أحد من قبل ، فلا يمكن أن تؤنسنى سوابق التجربة .. كل شيء كان غريبا .. وهاوية السقوط كانت مخيفة ولوالب الآلة تحدث صريرا يزيد تمزيق اعصابى ، فقلت لنفسى اننى لا يمكن أن اتوقف .. وأن الآلة مهما فعلت لن تكف عن الحركة المندفعة العمياء ..

« وسبب لى هذا الخاطر نوعا من الرعب والجنون ، فما أدرى وانا اقبض بيدى كلتيهما على الرافعة الاخرى واحركها بكل قوتى .. فاذا بالآلة تدور حول نفسها ، ثم اذا بها تشق بى اجواز الفضاء رأسا على عقب !

« وسمعت دويا مثل قصف الرعد يكاد يخرق صماخ أذنى .. ولعلنى غبت عن الوجدان لحظة ، وأفقت على صوت فحيح شديد يحيط بى من كل صوب . وبعد قليل شعرت اننى استقر فوق شيء طرى ، وتبدد الضباب شيئا فشيئا عن عينى فتبينت موضعى . كنت جالسا على عشب غزير أمام آلتى المقلوبة . وزال الطنين عن اذنى رويدا ، وأنا أجيل البصر فيما حولى لاجدنى وسط

بستان فيه مرج وتحيط به شجيرات • وكان المطر ينهمر فيبلل ثيابى وينفذ الى جلدى وعظامى المقرورة • فقلت بغيظ :

ـ ياله من استقبال بارد لرجل قطع عددا لا يحصى من الاعوام كى يصل الى هنا !

« تم ادركت أنه من البلاهة بمكان أن أترك الماء يبللنى بهذا الشكل •• فنهضت قائما ونظرت فيما حولى ، فاذا شكل ضخم جدا يبدو أنه منحوت فى الصخر الابيض • ولم استطع ان اتبين فيما عدا ذلك شيئا آخر يدلنى على مكان هبوطى ••

« ومن الصعب أن أحدد لكم كنه احساسى ، وأنا أرى أعمدة من البرد والجليد تتساقط من السحابة القريبة نسبيا من سطح الارض • وبعد قليل خفت كثافة الجليد المتساقط فاستطعت ان ارى الشكل الصخرى الابيض بمزيد من الوضوح وكان عاليا ، أعلى بكثير من الشجرة الفضية القائمة بجواره • وهو منحوت من المرمر وشكله اشبه بأبى الهول المجنح •• ولكن جناحيه مبسوطان على سعتهما عند الجانبين كأنه يهم بالتحليق ••

« أما القاعدة التى أقيم عليها ذلك التمثال العجيب ، فيبدو لى أنها مصنوعة من البرونز وعليها طبقة سميكة من الصدأ الاخضر • واتفق أن كان وجه التمثال الى ناحيتى ، فخيل الى أن العينين ترقبان كل حركاتى وسكناتى • وخامرنى احساس بأن شفتيه يتلاعب عليهما شبح ابتسامة !

« وكان واضحا أن التمثال عتيق ، وأن العوامل الجوية فعلت فيه على مر الزمن فعلها •• فكان يسير • وكان

توالى الضوء والظلام بتلك السرعة ، شبيها فى تأثيره السيىء بالاثار التى يتركها المرض الطويل على الكائن الحى ، ووقفت اتأمل ذلك التمثال برهة قصيرة ، قد تكون نصف دقيقة وقد تكون نصف ساعة •• فبدا لى التمثال وكأنه يتقدم تارة ويتراجع تارة أخرى كلما ازدادت كثافة الجليد أو قلت ••

« وأخيرا خف سقوط الجليد حتى أوشك أن ينعدم ، وبدت فى صفحة السماء تباشير طلوع الشمس • وعدت أنظر الى التمثال الابيض الرابض واستولى على كل ماتجمع فى رحلتى من الفزع والمخاوف فجأة ، ترى هل هذا نذير بما حدث للبشر ؟ اى قارعة من المستحيل أن تقع لبنى الانسان ؟ ما المانع من أن تكون البشرية قد فقدت صفاتها الانسانية وانقلبت الى كائنات ليس لبأسها حدود وليس للرحمة لديها وجود ؟

« اننى حرى فى هذه الحالة أن أبدو لقوم ذلك الزمان المستقبل بقية عجيبة من سلالة متوحشة منقرضة ، فيقررون حرصا على الصالح العام أن يقتلونى !

« وبدأت تلوح لعينى مناظر غريبة •• معظمها مبان وأشكال ضخمة وأعمدة شاهقة وغابات تكسو سفوح التلال • ولكن الخوف سيطر على مشاعرى ، ولم يدع لى الفزع فرصة للتفكير •• فاندفعت كالمجنون نحو آلة الزمان ، وحاولت فى آستماته أن أصلح من شأنها • وبزغت الشمس فتلاشى كل أثر للجليد المتساقط ، وبدا كل شىء على مرمى البصر واضحا • فازدادت الابنية والاشياء ضخامة وهولا ، فجعلت أنتفض من الخوف كالعصفور بلله القطر ، ووجهت همى كله إلى اصلاح الآلة الى أن تم لى ذلك فامتطيت صهوتها وهممت آن أدير

محركاتها . وعندئذ راجعني شيء من استطلاعي القديم وقد شارفت الامان ، فألقيت نظرة أخيرة على عالم المستقبل البعيد ، وعندئذ تبينت خلال فتحة مستديرة في قمـــة جدار أقرب الابنية مجموعة من الاشكال مرتدية أثوابـا فخمة ، وكان واضحا أنهم رأوني ، فقد كانت وجوههم الى ناحيتي . ثم سمعت أصواتا تقترب مني ، ورأيت بين الاشجار القريبة من التمثال وجوه اشـــخاص يركضون صوبي ..



سلالتنا البعيدة

« رأيت أحد اولئك الاشخاص الذين يجرون فى اتجاهى قادما من بين الاشجار ، وهو يخترق ممشى فرعيا يؤدى مباشرة الى الارض المعشبة التى كنت واقفا فيها داخل آلتى ..

« ولم يكن هذا الشخص ضخم الجثة ، بل هو على العكس قصير القامة ، ولعل طوله لا يزيد على أربعة أقدام .. متسربل بزى قرمزى اللون ، ومتمنطق حول خاصرته بحزام من الجلد ، وفى قدميه نعل ، وساقاه عاريتان الى الركبتين ، ورأسه عار كذلك ..

« وبعد أن فرغت من ملاحظة هذه الاشياء جميعا ، فطنت لاول مرة الى شدة سخونة الهواء .. ولفت نظرى جمال ذلك الشخص بدرجة فائقة ، ورشاقته الواضحة. ولكن استرعى انتباهى فى الوقت نفسه فرط هزاله ودقة تكوينه

« كان وجهه شديد الاحمرار ، يذكرنى بذلك النوع من الجمال الذى يضفيه السل احيانا على مرضاه . وكانت نظرة واحدة اليه كافية كى أستعيد على الفور الطمأنينة الى نفسى ، فرفعت يدى عن أزرار المحرك وروافعه التى كنت متشبثا بها وأنا على آتم أهبة للانطلاق ..

وبعد لحظة كان كل منا أمام الاخر وجهـا لوجه ، أنا وفى مواجهتى ذلك الكائن الهش الضئيل ابن المستقبل البعيد •• وأدهشنى على الفور أنه لم يظهر أى علامة من علامات الخوف ، ثم التفت الى شخصين آخرين تبعاه عن كثب ، وخاطبهما بلغة غريبة لاحظت أنها شديدة العذوبة تنساب مقاطعها انسيابا ••

« واقبل آخرون غير هؤلاء ، فلم تمض الا برهة حتى تجمع من حولى نحو عشرة من هذه المخلوقات الصغيرة • ووجه أحدهم الخطـاب الى •• ومن العجيب أنـه خطر بذهنى عندئذ أن صوتى اذا تكلمت سيكون أعرض وأعلى وأعمق من احتمالهم وتصورهم • ولذا اكتفيت بهز رأسى ، ثم أشرت الى أذنى وهززت رأسى مرة أخرى ••

« وتقدم الشخص الاول منى خطوة ، وبعد تردد قليل لمس يدى •• وعندئذ شعرت بأنامل أخرى صغيرة لينة توضع على ظهرى وكتفى •• كانوا يريدون أن يتيقنوا من حقيقتى ، ويستوثقوا من أننى كائن فعلا ولست وهمـا زخرفه خيالهم •• ولم يكن فى ذلك المسلك ما يبعث على الخوف اطلاقا • والحقيقة أنه لم يكن فى هؤلاء القـوم الصغار الملاح ما يريب ، بل كان فيهم على العكس شىء ما يبعث على الطمأنينة والثقة •• شىء ما لعله تلك الرشاقة الدمثة أو روح الطفولة البريئة وهى ماضية على سجيتها وفضلا عن هذا كان تكوينهم يبدو هشا ضعيفا حتى لقد خيل الى أننى أستطيع أن أطوح بالعشرة المحيطين بى وكأنهم دبابيس ، بمجرد دفعة هينة بظاهر يدى • ولذا تركتهم يتحسسون جسمى كما يشـاءون ، ولكنى أتيت بحركة مفاجئة لتحذيرهم عندمـا رأيت أيديهم الصغيرة الحمراء تتحسس آلة الزمان ••

« ولحسن طالعى أننى فكرت قبل فوات الاوان فى خطر كنت قد نسيته من قبل ، فمددت يدى وفـــككت الرافعتين الصغيرتين اللتين تستخدمان فى ادارة المحرك .. ودسستهما فى جيبى ، ثم استدرت نحو القوم لأرى ماذا أستطيع أن أصنع فى موضوع التفاهم معهم ..

« ولما تأملت ملامح وجواههم بمزيد من الامعان ، تبينت خصائص كانت غائبة عن بالى فى ملاحتهم التى تشـبه ملاحة التماثيل الصغيرة المصنوعـة من الخزف .. تلك التماثيل التى يتفنن أهل درستون منذ أجيال فى صنعها .. فشعرهم المتموج ينتهى بشكل حاسم عند الرقبة والخد ، وليس هناك ادنى اثر لشعر أو زغب فوق صفحة الوجه .. أما آذانهم فكانت دقيقة الشكل بدرجة مفرطة، وافواههم صغيرة وذات شفاه نحيلة شديدة الاحمرار ، وأذقانهم الصغيرة تبرز من وجوههم بحيث تنتهى مدببة تماما ، وعيونهم واسعة فيهـا دماثة .. وخيـل الى أن نظراتهم خالية من الاهتمام الشديد الذى كنت اتوقعه من جانبهم

« وطال وقوفهم وهم لا يحاولون التفاهم معى .. بل يكتفون بالوقوف والتطلع باسمين ، ويتبادلون فيما بينهم التعليقات بأصواتهم الناعمة الرخيمة .. فقررت أن أضع حدا لهذا الصمت بيننا ، وبدأت أنا بالتفـاهم على قدر الاستطاعة ، فأشرت الى آلة الزمان ثم الى نفسى وترددت برهة لا أدرى كيف أعبر لهم بالاشارة عن معنى الزمان .. فأشرت نحو الشمس ، وعلى الفور تقدم شخص صغير جميل منهم يجمع فى ثوبه بين اللونين الابيض والقرمزى وقلد اشاراتى . ثم أدهشنى بتقليد صوت الرعد ..

« وانتابهم الذهول لحظة مع أن مضمون اشارته كان

واضحا تمام الوضوح .. ولكن ذهولى كان مصدره أن سؤالا طرأ على ذهنى على الفور : هل هؤلاء الناس بلهاء ؟

« ولا يمكن أن تتصوروا كيف استولى على هذا الخاطر، و « أورثنى » الهم ، فان اعتقادى على مدى الايام أن ابناء سنة نيف و ۸۰۲۰۰۰ سيكونون متقدمين علينا تقدما لايتصوره العقل سواء فى المعرفة أو الفن أو سائر الامور الاخرى .. ولكم أن تتصوروا فجيعتى حين أرى بعينى راسى أحد هؤلاء المستقبلين يوجه الى سؤالا يدل على أن مستواه العقلى يضارع المستوى العقلى لطفل من أطفالنا فى هذا العصر لايتجاوز الخامسة من عمره !!

« كان هذا الانسان يسألنى ان كنت قد أتيتهم قادما من الشمس فى عاصفة رعدية ! وملات خيبة الامل والحسرة جوانب نفسى .. وشعرت عندئذ أننى أجهدت نفسى فى بناء آلة الزمان بغير طائل ستحق ذلك العناء ..

« وأومأت برأسى وأشرت الى الشمس ، ثم حشدت قوتى كلها فى حنجرتى وزأرت مقلدا قصف الرعود فأفزعهم صوتى وتراجعوا مقدار خطوة أو خطوتين ثم انحنوا ، ولم يلبث أن تقدم أحدهم نحوى ضاحكا وهو يحمل طوقا من ازهار جميلة لم أر فى حياتى شيئا من نوعها ، وأشار معبرا عن رغبته فى تطويق عنقى بها ...

« ولاقت الفكرة استحسانا أعربوا عنه بتصفيق منغم لطيف .. وعلى الفور أخذ كل منهم يجرى هنا وهناك ليجمع الازهار من بين الاعشاب، ثم يقذفوننى بها ضاحكين الى أن كاد يخنقنى العبير .. ولن يكون فى وسعكم وأنتم لم تروا بأعينكم مارأيت بعينى ، أن تتصوروا مدى الطرافة

والتجديد والرقة التى اكتسبها اسنبنات الزهور فى تلك المئات من السنين ...

« وبعد أن أخذوا حظهم من ذلك اللهو الجميل ، اقترح أحدهم أن يقوموا بعرض طرفتهم التى عثروا عليها فى أقرب مبنى .. وهكذا اقتادونى بعيدا عن أبى الهول المنحوت من المرمر الأبيض ، وكان يخيل الى أنه يرقبنى طول الوقت بابتسامة محيرة .. وسرعان ما تبينت وجهتهم ، لانهم كانوا يسيرون بى صوب صرح ضخم رمادى اللون مبنى من الصخر المنقوش ..

« وفى الطريق تواردت على ذهنى تنبؤاتى القديمة المتفائلة عن مستقبل يزدهر فيه العقل والعلم ، ويزداد فيه وقار الانسان مع تقدم الفهم لاسرار الكون ..

ووجدت لهذه الذكرى اثرا ملطفا من جدية الموقف إلى حد كبير ...

« ولذلك المبنى مدخل ضخم وهو فى جملته مترامى الارجاء .. وكنت بطبيعة الحال مشغولا على الخصوص بتكاثر عدد الجمع الذى يتبعنى من هؤلاء الاقوام الصغار .. ومشغول فى الوقت نفسه بتلك البوابات الكبيرة المفتوحة ، وكأنها أفواه هائلة تتثاءب ومن داخلها عالم تملؤه بالنسبة الى الظلال والالغاز ..

« وكان احساسى العام بالعالم الذى رأيته من فوق مستوى رءوس هؤلاء القوم أنه مروج مترامية الاطراف، تنتشر فيها الاشجار الجميلة والازهار.. فكأنها حديقة كبيرة لم ينبت فيها العوسج ولا الاعشاب التى تخنق النبات المترف النافع . ولاحظت نوعا من الازهار الطويلة البيضاء الغريبة الشكل يبلغ عرض كل بتلة من بتلاتها

« أوراق الازهار » نحو قدم .. وهذه الإزهار البيضاء تنمو هنا وهناك بغير انتظام كأنهـا أزهار برية ، ولكنى لم أفحص أى زهرة منها فى تلك الآونة عن كثب .. وأما آلة الزمان فتركت ملقاة على العشب

« ولاحظت عند اقترابى من بوابة البنـاء أن ذلك القـوس الصخرى الضخم حافل بالنقوش ، ولكنى بالطبع لم أتأمل تلك النقوش بتمعن .. وان كان قـد خيل الى أننى أرى أشكالا تذكرنى بالزخارف الفينيقية وأدهشنى أن تلك الزخارف بها تصدعات كثيرةعميقة، وأن العوامل الجوية قد تركت فيها آثارا سيئة ..

« واستقبلنى على أعتاب البناء بضعة أشخاص آخرين ثيابهم أزهى وأكثر رواء من القوم الذين أتوا الى حيث حطت مركبتى .. ودخلنا وأنا أبدو فى وسطهم بثيابى العصرية وضخامتى والازهار المحيطة بعنقى كائنا عجيبا يباين تمام المباينة أعضاء الموكب ذوى الثيـابالبراقة والقدود الضئيلة والضحكاتالساحرة الرخيمةوالحديث المرح الذى ينساب فى الاذن كالخمر المسكرة أو الموسيقى العذبة ...

« وأفضى ذلك المدخل الضخم الى قاعة لهـا ستائر بنية اللون ، وسقفها المرتفع تحجبه الظلال ..ونوافذها بعضها له مصاريع من الزجاج الملون والبعض الاخـر بغير مصاريع بحيث تسمح بدخول ضوء ملطف ..وأما الارض فكانت مصنوعة من كتل ضخمة منمعدنأبيض شديد الصلابة ، واصر على كلمة كتل لا صـفائح لان السطح كان باليا من كثرة الاستعمال غـدوا ورواحا أجيالا فى أثر أجيال ، مما أحدث أخاديدعميقة فىالممرات

المطروقة .. وهذه الاخاديد تنبىء عن سمك تلك الكتل التى رصفت بها الارض ..

« وكان يعترض طول القاعة عدد لا يحصى من الموائد المصنوعة من الصخر المصقول ، وارتفاعها عن الارض لا يزيد على قدم واحدة .. وفوق هذه الموائد أكوام من الفاكهة ، عرفت فى بعض انواعها مشتقات من فصيلة البرتقال والكرز، ولكن معظم الانواع كانت غريبة عنى تماما !

« وبين الموائد تناثر عدد هائل من الوسائد والحشايا، جلس اعضاء الموكب عليها واخذوا يشيرون الى كى أحذو حذوهم .. ومن غير مراعاة لأى نوع من أنواع التكلف للاصول المعروفة لنا ، شرعوا يأكلون تلك الفواكه بأيديهم ويلقون القشور والنوى وما الى ذلك داخل الفتحات المستديرة التى على جوانب الموائد ..

« ولم أضيع وقتا طويلا فى التردد ، بل حذوت حذوهم لانى كنت أشعر بوطأة العطش والجوع .. واثناء تناول الطعام أخذت أتفحص القاعة على مهل، ولعل اهم ما لفت نظرى لاول وهلة هو مظهر الاهمال والتلف .. فزجاج النوافذ تعلوه أوساخ كثيرة وبقع طال عليها الامد ،وان كان مصنوعا فى أشكال هندسية بارعة وهناك ثغرات من أثر التحطيم فى مواضع كثيرة ، والستائر تعلوها طبقات كثيفة من الغبار ، ثم لفت نظرى أن زاوية المائدة الرخامية القريبة منى مهشمة.. ومع ذلك فان الطابع العام للقاعة يدل على الفخامة والبذخ والابهة

«وكان عدد من يتناولون الطعام لايقل عن مائتين..

ومعظمهم أقرب ما يمكن من موضعي ، وعيونهم ترمقني باهتمام وتومض من فوق الفواكه التي يقضمونها بأسنانهم ، وجميعهم يرفلون في أكسية متباينة الالوان ولكنها كلها على السواء مصنوعة من مادة واحدة حريرية الملمس بيد أنها متينة

« وقد اكتشفت فيما بعد أن الخيل والماشية والاغنام والكلاب قد حذت حذو الدناصور وما اليه من الحيوانات البائدة ، فانقرضت سلالتها .. ولكن الفواكه كانت لذيذة جدا وكثيرة الانواع . وكنت في البداية أتعجب لغرابة أصنافها ولغرابة الازهار التي أراها ،ولكنني بمرور الوقت ألفت منظرها وعرفت منابتها »



لغة جديدة

« وعلى كل حال ، بمجرد أن أشبعت نهمي وعطشي بدرجة معقولة ، بدأت تساورني فكرة تعلم لغة هؤلاء القوم .. وكان ذلك طبعا أول شيء يجدر بي أن أوليه عنايتي . وكانت الفواكه التي أمامي موضوعا مناسبا لاول درس ، فتناولت احدى الثمار ورفعتها أمام وجهي في الهواء ، وبدأت استخدم الاصوات والاشارات في السؤال عن أسمها .. ووجدت صعوبة كبيرة في توصيل مرادي الى أذهانهم ، وقوبلت محاولاتي الاولى بنظرات الدهشة والضحك المتوالي . ولكن سرعان مابدأ على شخص أشقر الشعر منهم أنه فهم مرادي ونطق باسمه ، وبدأت بينهم ثرثرة طويلة تعليقا على مسلكي وتوضيحا له ..

فكانت محاولتي بصوتي القوي أن أخرج مقاطع لغتهم اللطيفة الرقيقة مدعاة لمرحهم وطربهم .. ومع ذلك زعمت لنفسي أنني معلم كبير وسط مجموعة من الاطفال المشاغبين . ومضيت أسأل عن أسماء الفواكة الأخرى واحدة واحدة وأردد الكلمات ، الى أن وعيت نحو عشرين اسما على الاقل .. ثم انتقلت الى أسماء الاشارة ، ثم فعل « أكل » ..

« وكان التقدم بطيئا شاقا ، وسرعان ماشعر الاقوام الصغار بالتعب ورغبوا في التخلص من اسئلتي .. فقررت أن أخضع لحكم الضرورة واتركهم لهواهم على أن اتلقى

دروسى فى مقادير صغيرة وفترات قصيرة حتى أتجنب أطبجارهم ...

« وعندما انتهى الطعام ، وانتهـــى درسى الاول .. لاحظت أن معظم من كانوا حولى فى البداية قد انصرفوا. ومن الغريب أننى قابلت عدم اكتراثهم بمثله ، فلم أعد أحسب للياقة معهم حسابا .. فتركت القاعة بعـــد أن شبعت وخرجت الى العراء . وهناك رأيت أفواجا بعد افواج من هؤلاء القوم ، وكانوا يقتفون أثرى الى مسافة قصيرة وهم يتجاذبون الحديث ويضحكون من منظرى، ثم يبتسمون لى بمودة ويتركوننى الى شـــأن آخر ..

« وكان هدوء المساء قد شمل ، عندما ماخرجت من القاعة والشمس على وشك المغيب . وكان كل شىء يبدو فى نظرى غريبا مختلفا تماما عن العالم الذى أعـــرفه .. حتى الازهار ، وكان البناء الكبير الذى غادرته قائما عند سفح يخترقه نهر عريض ..

« وقررت أن أصعد قمة ربوة تبعد نحو ميل ونصـــف لألقى نظرة على كوكبنا سنة ٨٠٢٧٠١ بعد الميــلاد .. فهذا التاريخ هو الذى سجلته أجهزة آلتى .. !

« وأثناء سيرى الى تلك الربوة ، أخذت أرقب كل دليل يمكن أن يفسر الحالة السيئة التى تكتنف فخـــامة كل شىء حولى .. فما اكثر الاطلال والخرائب ! ففى منتصف سفح التل رأيت مثلا كومة كبيرة من الجرانيت ، ومتاهة مترامية من الجدران المتداعية تنمو بينهـــا نباتات غريبة الشـــكل رائعة الجمال ، أوراقها مزركشة بنقوش بنية اللون . وكان واضحا أن هذه الخرائب هى البقية الباقية من بناء ضخم ، لم أستطع أن أتبين الغرض الاصـــلى من

انشائه . وبين هذه الاطلال بالذات كان مكتوبا لى أن أمر فيما بعد بتجربة عجيبة للغاية ، قادتنى الى اكتشاف اعجب .. ولكنى سأترك هذا الحديث إلى الوقت المناسب، واستأنف سرد القصة بترتيبها الزمنى ..

« ولما وقفت فوق قمة الربوة أجيل الطرف فى الافق المترامى، تبينت فجأة أنه لا أثر هناك لبيوت صغيرة.. فكان البيت المفرد ــ وربما أيضا العمارة السكنية ــ قد انقرضت كما انقرضت الحيوانات المألوفة ..!

« وخطرت لى على الاثر فكرة أخرى ، فنظــرت الى حفنة الأشخاص الذين كانوا يتتبعون خطواتى عندئذ .. فتبينت ايضا انهم نسخ متشابهة من حيث الاقمشــة المصنوعة منها الثياب ، والوجوه الخالية من الشعر وطراوة الاطراف ورخاوتها ..

« أجل كنت قد لاحظت ذلك من قبل ، ولكن الملاحظة لم تكن واضحة وشاملة . فليس هناك ذلك التفاوت فى أصناف الثياب ، ولا سيما بين الجنسين كما هو معهود لدينا ، فاستنتجت أن هناك تشابها كبيرا بين الجنسين فى كل شىء فى عالم المستقبل البعيد . ولقد أوشــكت الفروق الجنســية أن تتلاشى ، ولم يعد الرجل متميزا بالقوة والمرأة بالرخاوة والنعومة . لم يعد الرجل متميزا بالكدح والعمل .. فلا عمل هناك تقريبا ، وهكــذا لحق الرجل بالنساء فى نعومة الوجه والزى والرقة ..

« وبهذه المناسبة الاحظ ان فى جيلنا الراهن بدايات توحى بهذا الاتجاه .. بدايات لا يستهان بها فى اختلاط الملابس والالوان والصفات والمظاهر ...

« هذه على كل حال هى الخواطر التى مــرت برأسى

فى البداية ، قبل أن اتحقق من مدى اصابتها كبد الحقيقة .. وبينما انا افكر فى هذه الامور ، استرعى انتباهى بناء جميل صغير أشبه ببئر مقامة تحت قبة .. وعجبت فى نفسى لان الابار ظلت محتفظة بوجودها ، ولم تندثر أو تنقرض مثل معظم معالم دنيانا الحاضرة ..

« ولم يكن هناك قرب قمة الربوة ابنية كبيرة ، ولأن خطواتى كانت واسعة جدا بالنسبة لاولئك الناس فسرعان ما ألفيت نفسى وحيدا حين اسرعت فى السير . وكانت هذه أول مرة أخلو فيها الى نفسى .. واسعدنى هذا الشعور بالحرية والمغامرة فاندفعت نحو الربوة ، وهناك وجدت مقعدا من معدن اصفر لم استطع التعرف عليه ، وفى مواضع منه صدأ قرمزى ، ويكاد يكسوه نبات ناعم مثل الطحلب نابت حوله .. وعلى ذلك المقعد جلست ، وأخذت أنظر الى عالمنا القديم فى ضوء الاشعة الاخيرة للشمس الغاربة . وكان المنظر من الطف وأجمل ما رأيت فى حياتى . والافق الغربى يختال فى موكب باذخ من القرمز والارجوان والذهب . ومن تحت أقدامى يترامى وادى التيمز .. وهنا وهناك كنت ارى اطلالا مندثرة وصروحا شامخة بين الحدائق المترامية، ولمحت على البعد خطا عموديا لعله ينبىء عن قبة أو مسلة ...

« ولم تبصر عينى اسوارا ، ولا أى دليل على ملكية خاصة ولا على زراعة مقصودة .. وكأن الارض كلها قد انقلبت حديقة او جنة . ولعل منظر غروب الشمس قد أوحى الى ذهنى بالخاطر الجديد الذى بدأ يستولى على تفكيرى وهو أننى حللت الارض فى الزمن الذى جنح فيه الجنس البشرى الى الغروب . وأيقنت عندئذ أن القوة

والصلابة لا تلدهما الا الحاجة والمقاومة ، وأن الامان من الحاجة والطمأنينة ويسر المعيشة لابد أن تفضى الى الضعف والانحلال ..

«وأدركت عندئذ ان اتجاه البشرية الى تحسين ظروف الحياة ، وأن أجتهاد المدنية فى زيادة الطمأنينة الاقتصادية والاجتماعية والبدنية والصحية قد بلغ على مر الزمن غايته . واستتب النصر طويلا لجهود البشرية المتحدة التى سيطرت على الطبيعة سيطرة تامة .. وان الامور التى نعتبرها اليوم اضغاث احلام وامنيات عذبة ، بيد انها خيالية ، قد تحققت جميعها وزيد عليها اضعافا مضاعفة .. فكانت نتيجة هذه المدنية القصوى المستقرة هى ذلك الحصاد المؤسف الذى يتراءى لعينى صورة خرائب أبنية وخرائب آدميين ! .. الاطلال فى كل مكان تتحدث عن انحلال سلالة لم يكن لطموحها حد ، فدفعت ثمن النجاح تحللا يشفى بها على الفناء !

« لكن بيننا وبين هذا الشوط مدى بعيدا جدا .. فزراعتنا اليوم ووسائلنا الصحية لم تزل بدائية جدا ، وعلمنا العصرى لم يناوش الا أقل القليل من كنوز المعرفة ومن مصادر المرض والفاقة . ولم يزل أمامنا شوط هائل ، قبل أن نصل الى ما يشبه ذروة المدنية . ولكن ذلك الزمن بلغ من سيطرته على سلالات النبات أنه يستحدثها لا بالتدريج ولكن فى مثل طرفة العين .. ! وسيكون أبناؤنا فى المستقبل متكافئين فى فرص الذكاء والصحة والرفاهية والرخاء والراحة . ولن يكون هناك تفاوت بين أبناء البشر فى الحقوق أو الامتيازات أو الواجبات ، وما أكثر الامتيازات يومئذ وما أضأل الواجبات !

« حسبكم أن تعلموا أن الهواء سيكون بفضل العلم خاليا من الهوام والذباب والغبار والجراثيم ، وأن التربة ستكون خالية من العوسج والاشواك والاعشاب الضارة .. ان الأمراض التى نعرفها لم يعد لها وجود فى عالم المستقبل ! .. لم يعد هناك فى القاموس شيء اسمه العدوى أو الوباء . لقد قضى الطب الوقائى على الطب العلاجى ، فانقرض كما انقرضت الحيوانات المندثرة !..

« بل أكثر من هذا ، قضى العلم على ظاهرات التعفن لخلو الهواء من الجراثيم ! .. انهم يلقون بقايا الطعام وقشور النباتات حيثما اتفق فلا تتعفن ولا تتحلل .. كل شيء هناك نظيف فلا وجود لما نسميه نحن القمامة أو النفاية !

« ومثلما قضى العلم على أسباب الشقاء الصحى ، قضى الوعى الاجتماعى على أسباب الشقاء السياسية والاجتماعية .. فأبناء الجنس البشرى على السواء يرفلون فى أجود أنواع الثياب ، بل ليس هناك من الثياب الا نوع واحد هو الأجود .. فلماذا ينتج البشر ما هو أقل جودة أو أردأ وهم يعرفون كيف ينتجون الأجود والافضل ؟! ...

« ثم لمن ينتجون الأردأ ؟ ليس هناك تفاوت فى القدرة الشرائية ، وليس هناك مجال للاثراء الذى يخلق تفاوتا فى الاقتناء ...

« ولم ألاحظ على احد هناك أنه يعمل .. ليس هناك أجراء ولا عمال ، وليس هناك أى نوع من أنواع الصراع .. سواء كان صراعا اجتماعيا أو صراعا اقتصاديا .. والمتجر والاعلان وحركة المرور والنقل

والتسابق على التصدير وعلى الأسواق ، وكل تلك العمليات التجارية التى تنهك أعصاب العالم اليوم ، وتقوم عليها المناورات الدولية والحروب والمكابرات الاستعمارية ، ليس لها مكان فى عالم المستقبل ، انتهى زمنها بانتهائنا .. !



مصير قاتم

« وكان من الطبيعى على ضوء تلك الخواطر والمشاهدات فى تلك الأمسية الجميلة ، أن أفكر فى الفردوس الاجتماعى الذى نعتبره اليوم ضربا من المحال أو شطحة من شطحات الخيال .. ولكن كيف يكون ذلك مستحيلا وقد استطاع تقدم العلم والمدنية أن يتغلب على الحالة الجوية ، فأصبح طقس انجلترا ربيعا دافئا على الدوام طول النهار ... واذا طرأت عاصفة قبيل الفجر وتساقط الجليد كما شهدت ذلك بعينى ساعة الهبوط عند ساحة أبى الهول فالضرر مؤقت والأثر لا يلبث أن يزول !

« ومشكلة المشاكل التى يواجهها الحصفاء فى أيامنا هذه - وهى الزيادة المطردة فى النسل - استطاع العلم بكل وسيلة أن يجد لها حلا حاسما ، فالناس فى هذا العالم السعيد لايتهالكون على انجاب الاطفال .. وعددهم دائما فى حدود المعقول

« ولكن المسألة الكبرى التى شغلت ذهنى عندئذ هى العلة الخفية وراء هذا التغيير فى أحوال البشر وأشكالهم .. فتغير الظروف يستتبع دائما من الناس التكييف والتأقلم ليواجهوا الظروف الجديدة ويعيشوا فى ظلها .. فما هو ذلك التغير فى الظروف الذى تسبب فى تغيير درجة الذكاء البشرى وظهور قدرات الآدميين وبأسهم ؟

« انها المصاعب والعقبات والقيود التى تكبل الحرية مع النزوع الى الحرية ، فهذه هى الظروف التى لا تسمح بالبقاء الا لمن يعمل ويقاوم ويناضل ويثبت فى النضال ويحسن المراوغة عند الاقتضاء .. وهكذا يبقى فى هذا الصراع الضخم القوى والذكى ، أما الضعيف بدنا وعقلا فلا مكان له ولابد أن يفنى ...

« وكما يبرز الكفاح كوامن القوة والذكاء ، ينضج أيضا صفة الصبر والسيطرة على النفس وضبط الأعصاب والحزم . وفى معمعان الصراع الدائر حول غريزة الجنس، يبرز الحرص على كيان الأسرة وعوامل الغيرة والمسئولية والحنان على الذرية والعناية والتضحية وانكار الذات ..

« هذه هى المحن التى صهرت معدننا .. وأنضجت مواهبنا الجسدية والعقلية والخلقية . وبالقضاء على تلك المحن فى ذلك المستقبل البعيد ،ضاعت نتيجة طموحنا المفرط الى الرفاهية والدعة كنوز هى أثمن من كل رفاهية .. انها كنوز أنفسنا وذواتنا ... كنوز القوة والذكاء والخلق ! ...

« وبينما أنا واقف هناك أتأمل ما آلت اليه البشرية من انحلال بسبب امعانها فى القوة ، ومن هزيمة امام الطبيعة بسبب امعانها فى السيطرة على الطبيعة ، اذا بالقمر بدرا فى تمامه يتراءى فى الأفق الشمالى الشرقى فى هالة من الضياء الفضى ...

« وأخذت حركات الناس عند سفح الربوة تقل الى ان خفتت تماما .. ومرقت بجانبى بومة ، وسرت فى أوصالى قشعريرة من برودة الليل ، فقررت أن أهبط التل لادبر موضعا لمبيتى ..

« وبحثت عن المبنى الـــذى أعرفه بعينى كى أحدد هدفى قبل أن أهبط التل . وتوقفت نظرتى أثناء هذا البحث لحظة عند تمثال أبى الهول المجنح الابيض اللون فوق قاعدته المصنوعة من البرونز . وكان ضوء القمر الصاعد قد ازداد وضوحا ، فظهرت معالم التمثال وما يحيط به تمام الظهور .. واستطعت أن أرى الشجرة الفضية المجاورة له ، والغابة الصغيرة من الشجيرات وقد بدت قاتمة فى الضوء الشاحب . وها هو أيضاً ذلك المسطح الصغير المفروش بالعشب الاخضر ..

« وألقيت نظرة أخرى على ذلك المرج .. وانتابنى شك قوى وقلت لنفسى بحرارة :

ــ كلا!.. ليس هذا هو المرج الذى أعرفه !

« ولكنه كان هو لأن وجه أبى الهول كان الى ناحيته.. فهل يمكنكم ان تتصوروا اثر هذا اليقين فى نفسى ؟ .. كلا ، لا يمكنكم أن تتصوروا هذا الاثر .. ان آلة الزمن لم تكن فى موضعها حيث تركتها هناك !..

« وفجأة شعرت كأن ضربة سوط هبطت على وجهى.. ان معنى هذا أن عمرى كله عرضة للضياع .. وأننى قد أبقى فى هذا العالم الجديد الغريب وحيدا لاحـول لى ولا قوة .. وبعد لحظة واحدة ، ترجمت أعصابى هذا الاحساس الى ذعر مفرط . وأخذت اجرى فى خطوات واسعة لاهبط التل ، وسقطت على أم رأسى فجـــرح وجهى ولكنى لم أضيع وقتا فى تجفيف الـــدم .. بل وثبت قائما واستأنفت الجرى والقطرات الدافئة تنحدر وتنساب على خدى وذقنى ...

« وظللت طول الوقت اقول لنفسى وأنا أجرى :

ـ انهم لم يفعلوا بها شيئا .. وقد حركوها قليـلا فقط .. دفعوها تحت تلك الشجيرات حتى لاتعترض الطريق ..

« وجعلت العن نفسى بصوت مسموع ، وأنا أجرى ، لما أقدمت عليه من طيش حين تركت آلتى بغير احتياط . ورحت انادى بصوت مرتفع فلا يجيبنى أحد ، ويبدو أنه لم يكن هناك انسان واحد يقظان فى ذلك العالم المترامى المستلقى تحت ضوء القمر ..

« وعندما وصلت الى المرج تحققت أسوأ مخاوفى .. فلم يكن هناك أثر للالة ، وشعرت بالاعياء والبرد حينما واجهت المكان الخالى وسط الشجيرات القائمة . وجعلت اجرى فى أرجاء المكان وأنا فى شدة الغيظ ، كأنما الآلة يمكن أن تكون مختفيـة فى ركن من الاركان .. وبعـد قليل توقفت على حين غرة ، وجعلت أجذب شعرى مـن شدة القهر . ومن فوقى كان ابو الهول الابيض المجنح يطل على من فوق قاعدته البرونزية ، وخيل الى فى ضوء القمر أنه يبتسم ساخرا من فجيعتى .. !

« وكان من الممكن أن أعلل نفسى مفترضـا أن أولئك القوم قد وضعوا الآلة فى مكان أمين ليحفظوها لى .. لولا أننى كنت على يقين من عجزهم عن ذلك جسديا وذهنيا ، فخامرنى الاحساس بأن هناك قوة خفية أجهلها تدخلت لابعاد اختراعى عن يدى .. !

« ولا بد أنى كنت فى حالة جنونية لانى أتذكر جريى بعنف بين الاشجار وحول أبى الهول ، وأننى رأيت أثناء

جريى حيوانا أبيض اللون ، ظننتــه فى الضوء الخافت غزالا صغيرا •• وأذكر أيضا أننى فى ساعة متأخرة من تلك الليلة ، جعلت أضرب الاشجار بقبضة يدى الى أن دميت مفاصل اصابعى • ثم أخذت أبــكى وأهذى •• واندفعت نحو البناء الكبير ، فوجدت القاعدة الــكبرى مظلمة ساكنة مهجورة • وانزلقت على الارض غيرالمستوية فكان وقوعى على احدى الموائد الصخرية ، وكدتاكسرعظام حوضى • وأوقدت عود ثقاب واخترقت الستائر المحملة بالتراب ،فوجدت قاعة أخرى كبيرة ملآنة بالوســـائد والحشايا •• وعلى بعد أمتار منها رأيت نحو عشرين من أولئك القوم الصغار نائمين ••

« ولا شك أنهم عجبوا لظهورى بينهم على هذه الصورة عجبا شديدا ، لانى دخلت عليهم على حين غرة هاتكا حجب الظلام وسكينة الليل بأصوات غير مفهومة لهم وبضــوء عود ثقاب •• فهم فيما يظهر قد نسوا كل شىء عن اختراع اسمه اعواد الثقاب ••

« وجعلت اصيح بهم فى غضب كغضب الطفل الهائج :

ــ اين آلتى ؟ •• أين آلة الزمن ؟

« وكنت أضع يدى عليهم وأجذبهم لانهضهم من رقادهم، فكان ذلك بلا شك شيئا عجيبا فى نظرهم .. فأخذ نفر منهم يضحكون ، ولكن الغالبية استولى عليها الفزع ! .

« وفجـأة أطفـأت عود الثقـــاب واندفعت خارجا ، فاصطدمت فى طريقى بواحد منهم وأوقعته على الارض .. ثم اخترقت قاعة الطعام الكبرى مرة أخرى الى أن وجدت نفسى فى الخلاء تحت ضوء القمر ..

« وسمعت صيحات تدل على الفزع ، ووقع أقدامهم الصغيرة ، وهم يجرون ويتعثرون فى هذا الاتجاه أو ذاك . ولست أتذكر كل ما فعلته والقمر يتسلق قبة السماء ، ويخيل الى أن جسامة خسارتى قد أطارت صوابى .. لانى شعرت بالانقطاع اليائس عن نوعى كله ، حتى صرت حيوانا غريبا فى عالم مجهول ! ..

« وأخيراً استلقيت على الارض قرب تمثال ابى الهول المجنح ، وانفجرت باكيا فى حزن وانكسار بالغ ، مغيظا لان حماقتى سولت لى ترك الآلة الثمينة تغيب عنى ، وفيها سر قوتى كلها حتى لم يبق لى الا الشقاء والعجز ..

وعندئذ كان قد نال منى الاعياء والاسى فنمت .. ولم أستيقظ الا فى وضح النهار ، فوجدت عصفورين يتواثبان من حولى على العشب على قيد ذراع منى ..

« وجلست فى طراوة الصبح ، أحاول أن أسترجع فى ذهنى كيف جئت الى هنا ، ولماذا أحس فى أعماقى بالوحشة والانقطاع واليأس . ثم اتضحت الاشياء أمام بصيرتى ، وأتاح لى ضوء النهار شيئا من الطمأنينة والاتزان فواجهت ظروفى الجديدة بتعقل . واتضحت لى حماقة ثورة غضبى الجنونية بالامس ، ورحت أناقش نفسى الحساب وأحاورها ..

« وبدأت بافتراض أسوأ النتائج ، قائلا لنفسى :

ـ فلنفرض أن الآلة ضاعت تمام الضياع ، أو تحطمت ، ان الواجب يقضى فى هذه الحالة أن أكون هادئا صبورا أو أن أتعلم طرائق هؤلاء الناس فى الحياة ، وأحاول معرفة المصادر التى أحصل منها هنا على ما يلزمنى من المواد

والادوات عسى أن أتمكن فى النهاية من صنع آلة أخــرى للزمن ، ان هذا هو بصيص أملى الوحيد .. وهو بصيص ضئيل فعلا ، لكنه افضل كثيرا من اليأس التام ، ثم ان هذا العالم الجديد جميل فى الواقع وطريف وملىء بنواحى الجدة التى تثير الاستطلاع ..

« وهتف بى هاتف فى نفسى بأن الآلة ربما كانت قد أخفيت فى مكان بعيد .. ومع هذا يجب أن أتذرع بالهدوء والصبر كى أعثر على مخبئها وأستردها ، اما بالقوة واما بالحيلة ..



قاعدة التمثال

« وعلى هذا القرار هدأت نفسى ، ونهضت قائما على قدمى .. وتلفت حولى وأنا أتساءل أين عساى أستطيع ان أستحم ، لان ارهاقى ونومى فى العراء وتصلب أعضائى وغبار السفر جعل حالتى لاتطاق .. وأغرتنى نضارة هذا الصبح أن أنشد لنفسى النظافة والنضارة ..

« وبينما أنا أبحث عن موضع للاستحمام ، جعلت فى الوقت نفسه أفحص الارض المحيطة بالمرعى الصغير فحصا دقيقا . ورحت أحاول توجيه الاسئلة بالاشـارة الى من أصادفهم فى طريقى من أولئك القوم الصغار ، فلم يستطع أحد منهم أن يفقه مرادى .. وبعضهم ذهل وسكت ، أما البعض الاخر فظن أننى اهـرج او اداعب وجعلوا يضحكون منى . فوجدت عناء شديدا فى منـع يدى من الانقضاض على وجوههم الضاحكة الجميلة ..

« وبعد قليل وجدت بين الاعشاب آثارا تبشر بالخير .. وكانت هذه الآثار عبارة عن أخاديد وخطوط فى الارض فى منتصف المسافة بين قاعدة أبى الهول والموضـع الذى هبطت عليه آلة الزمن عند وصولى . وفضلا عن هـذه الخطوط ، كانت هناك اثار جر شىء ثقيل .. وبجوارها آثار أقدام صغيرة جدا . ووجه هـذا كله نظرى الى قاعدة التمثال ، وكانت هـذه القاعدة كمـا قلت آنفا مصنوعة من البرونز ..

« واتضح لى أن القاعدة المذكورة لم تكن كتلة واحدة صماء ، فهناك نقوش كثيرة واطارات متعددة على جانبيها .. فاتجهت الى تلك الاطارات وجعلت أدق عليها بيدى ، فعرفت أن القاعدة مجـــوفة . وفحصت تلك الاطارات بعناية فوجدتها غير متصلة بعضها ببعض .. ولم أكتشف مواضع للمقــابض أو المفــاتيح ، الا أنى قدرت أن هذه الاطارات عبارة عن أبواب تفتح من الداخل ..

« ووضح أمام ذهنى تمام الوضوح ، بغير عناء طويل فى الاستنتاج ، أن آلة الزمن مستقرة فى موضع ما داخـل القاعة .. وان كنت لا أدرى كيف أدخلوها هناك ..

« وفيما أنا فى موقفى ذاك ، وقد استبدت بى الحيرة ، رأيت شخصين من أولئك الناس الصغار فى ثياب برتقالية اللون قابعين تحت أشجار التفاح المزهــرة .. فالتفت نحوهما باسما ، وأشرت اليهما بالاقتراب منى ، فاقتربا . وعندئذ أشرت الى القاعدة البرونزية ، وحاولت ان أفهمهما بالاشارة فحوى رغبتى فى فتحها ..

« ولكن بمجرد الاقدام على أول اشارة فى هذا المعنى ، وجدت لديهما رد فعل غاية فى الغرابة .. ولا ادرى كيف أصور ذلك لكم اليوم . ولذا سأقرب الموقف من أذهانكم بتشبيه تمثيلى ، وتصوروا أن أحدا منكم بدرت منـه اشارة نابية أو بذيئة نحو سيدة مهذبة خجول .. ان رد الفعل لدى هذه السيدة شبيه تماما بما ارتسم على وجهى هذين الشخصين فى تلك اللحظة .. كأن اشارتى تحمـل كل معانى الفحش الخـادش للحيــاء .. وانطلقا موليين فرارا كأنهما تلقيا أفظع اهانة يمكن أن تخطــر بالبال ، وتركانى فى حالة حيرة لامزيد عليها ! ..

« وحاولت المحاولة نفسها مع شخص لطيف المنظر يرتدى ثوبا أبيض ، فكانت النتيجة هى بعينها . . وكانت نظراته لى مبعثا لاحساسى بالخجل من نفسى ، ولكنى كما تعلمون كنت حريصا على استرداد آلتى . فأعدت عليه الكرة ، فأولانى ظهره موليا عنى كما فعل صاحباه من قبل . فأفلت زمامى من يدى ، وسيطر على غضبى . وفى ثلاث خطوات ، كنت قد أدركته وأخذت بتلابيبه وجعلت أجره نحو تمثال أبى الهول جرا ..

« وعندئذ طالعت فى وجهه من الارتياع والنفور ماجعلنى أفلته ، فراح يعدو مبتعدا لايلوى على شىء .. وذهبت الى القاعدة البرونزية وجعلت أدق اطاراتها بقبضتى ، فخيل الى انى اسمع شيئا يتحرك فى الداخل .. خيل الى بصراحة أنى أسمع ضحكة ساخرة ، ولكن لابد أنى كنت مخطئا ..

« وانتقيت قطعة حجر كبيرة استبدلت بها بعد قليل حصاة ضخمة .. ورحت أدق بها القاعدة حتى أخذ الصدأ يتناثر ، ولابد أن أولئك الناس الرقاق قد سمعوا الدق على مدى ميل أو أكثر .. فقد رأيت عددا منهم يقفون فوق الربى البعيدة ناظرين نحوى فى استطلاع ودهشة ..

« وأخيرا أدركنى التعب وتصببت عرقا ، فجلست أرقب المكان ولا أدرى ماذا أصنع . ولكنى لم استطع صبرا على هذا السكوت ، فطبيعتى الغربية لاتسمح لى بهذا الركود .. وأنا لا أسأم من متابعة معضلة بقصد ايجاد حل لها سنوات متوالية . أما الاكتفاء بالسكوت والركود أربعا وعشرين ساعة فشىء لاطاقة لى به ..

« ونهضت بعد فترة من الوقت ، ورحت أتجول على غير هدى بين الاشجار ..

« وفجأة تبدت أمام ذهني المفـــارقة الضخمة ، حين تذكرت تلك السنوات الطويلة من عمرى التى انفقتها فى الدروس والعمل الكادح لاصـــل الى عصر المستقبـــل .. وهاانذا أطأ بقدمى عصر المستقبل حتى جن جنونى لهفـة منى على مفارقته !!

« اننى فى الحقيقة قد صنعت بنفسى أعقد وأسوأ فـخ صنعه انسان .. ومع أننى كنت الضحية فى هذا المأزق ، الا أن المفارقة الضخمة كانت أقوى من حـيرتى وأحزانى فانفجرت أقهقه ضاحكا ..

« وعندما دخلت القصر الكبير خيــــل الى أن الناس يتجنبوننى .. ولعل هذا كان وهما صوره لى خيالى ، او لعله حقيقة سببها أقدامى على دق جوانب قاعدة تمثالهم الكبير . ولكن احساسى الداخلى أكد لى أنهم يتجنبوننى فعلا ، ومع هذا حرصت أشد الحرص على الا أظهر لهم أدنى اهتمام ، والا احاول مخاطبتهم أو الاتصال بهم



القسم الثالث

صورة عالم المستقبل

وحشة الغربة

« وانقضى يومان فعادت الامور الى سالف عهدها ، وتعلمت مااستطعت من لغتهم .. وزدت محصولى من الاكتشافات بالتجول هنا وهناك ..

« وما لم اكن قد أسأت الفهم ، فالذى ادركته أن لغتهم بسيطة كل البساطة ، وتتكون من أسماء الموجودات المادية ومن الافعال . وليست هناك ألفاظ تدل على أشياء مجردة أو استعارات ، فعباراتهم تتكون غالبا من كلمتين اثنتين

« وحاولت أن أعبر لهم بهذه اللغة عن فكرة آلة الزمان ، وعن لغز الابواب البرونزية التى تحت تمثال أبى الهول فلم أفلح . ولذا قررت ارجاء هذه المحاولات الى أن تزداد معلوماتى وأصل الى حل هذه الالغاز بوسائلى الخاصة .. وان كنت حريصا على ألا أبتعد عن موضع وصولى أكثر من بضعة أميال فى أى اتجاه من الاتجاهات ..

« ومن هذه الجولات ، أستطعت أن أكون فكرة مضمونها أن سائر أنحاء العالم تتمتع بما يتمتع به وادى نهر التيمز فى هذا الموضع من رخاء وبذخ وخصوبة .. فكلما ارتقيت تلا من التلال وقعت عينى على مايشبه الابنية المحيطة بى فى فخامتها وضخامتها .. على تنوع لا حد له

فى مواد البناء وطرازه ، وتحيط بتلك القصور العظيمـــة بساتين وغابات دائمة الخضرة أشجارها مزهرة أو مثمرة. وهنا وهناك بحيرات وأنهار تلمع فى ضوء الشمس كأنهـا الفضة الذائبة ، والتلال والربى والجبال تغطيها النباتات والمروج الى مدى النظر ..

« ولفتت نظرى ظاهرة خاصة هى كثرة الآبار الدائرية، وبعضها بعيدة الغور جدا .. واحـدى تلك الآبار على الطريق الصاعدة الى التل . وهى تلك الطريق التى سرت فيها فى أول أمسية لى بعد مأدبة الطعام فى القصر الكبير ..

« وقد وجدت تلك البئر ـ شأنها فى ذلك شأن الآبار الاخرى ـ مسورة بالبرونز وتعلوها قبة صغيرة تحميهـا من الامطار . وجلست بجوار البئر ونظرت فى أعماقهـا المظلمة ، فلم أستطع أن ألمح أى أثر للمـــاء . واستعنت باشعال عود ثقاب فلم أجد لنوره انعكاسا .. والماء يعكس أشعة الضوء كما هو معلوم . ولكن فى جميـع تلك الآبار سمعت صوتا معينا هو أشبه شىء فى رتابته بصوت آلة ضخمة تدور بانتظام . واكتشفت مما يحدث لشعـلات الثقاب أن هناك تيارا ثابتا من الهواء يندفع الى أعمـاق تلك الآبار . ورميت قصاصة من الورق فى فتحة احداها ، فاذا بها لاتهبط الى الداخل ببطء كما هو مفروض ، بل رأيتها فى لمح البصر تمتص وتغوص فى جوف البئر متوارية عن نظرى ..

« وبعد تكرار التجربة ، استطعت أن أربط بين هذه الآبار وبين أبراج عالية شاهدتها هنا وهناك فوق جوانب التلال .. ففوق هذه الابراج كنت أرى فى أحيان كثيرة وميضا خاطفا فى الجو كذلك الوميض الذى يراه المرء فى

يوم شديد الحرارة فوق رمال الشاطىء ..

« وبشيء من اعمال الذهن ،استطعت أن أكون افتراضا قويا عن وجود نظام ضخم للتهوية تحت الارض .. وان كنت لم أستطع أن أتصور الهدف الحقيقى لذلك النظام وخيل الى فى البداية أن له علاقة بالنظام الصحى الوقائي المحكم لدى هؤلاء الناس . وربما كانت هذه التهوية مرتبطة بما يشبه نظام المجارى عندنا ، وهو افتراض كما ترون قريب الى الذهن وله وجاهته .. ولكنه كان بعيدا كل البعد عن الصواب ..

« وهنا يجب أن أذكر شيئا خاصـــا ، وهو أنى لم أصادف الا أقل القليل ـ فى عالم المستقبـل ذاك ـ من استعمال البالوعات ، ودورات المياه ، وما الى ذلك من الادوات الصحية التى عهدناها فى عالمنا . وكان المفروض أيضا أن عالم المستقبل ستكون فيه تنظيمات دقيقة جدا لتصرفات الناس ، بحكم اشتراكهم معا فى أبنيــة واحدة ومنافع واحدة .. ولكنى لم ألاحظ شيئا من ذلك كله . وان كنت قد أحسست بوجود أجهزة وتنظيمات غريبــة جدا غائبة عن نظرى وفطنتى ، ولكنها ذات أثر فعال فى معيشة الناس وتوفير الراحة لهـم .. وكلهــا بلا شك تنظيمات اوتوماتيكية ، ولكنى لا استطيع أن احدثكم عن كنهها لان حالى هناك كانت فى الواقع أشبه بحال رجـل بدائى زنجى جيء به من الغابة الفطرية الى قلب لنــدن بضعة أيام ثم أعيد الى عشيرته الاولى فورا .. !

« ولكم أن تتصوروا القصة التى سيرويها هذا البدائى لابنـــاء قبيلته عن مدينة لندن واحوال اهلها واسـاليب معيشتهم .. انه طبعا سيكون قد تلقى منا فى لنـــدن

تفسيرات كثيرة وبيانات عما يراه من وسائل النقل وشبكات المواصلات والمصانع والمصاعد والصحف . . ولكنها طبعا ستكون بيانات غير مفنية بسبب الفجوة الكبيرة بين مستواه الحضارى والعلمى ومستوانا نحن فى لندن . وبطبيعة الحال سوف لا يفهم مواطنوه من كلامه شيئا كثيرا ، لانه اذا كان من رأى بعينيه لم يفهم ، فما بالكم بمن لم يروا بأعينهم !! ..

« والذى قدرته أن المسافة أو الهوة الهائلة بين ذلك البدائى والحياة اللندنية أضأل بكثير من الهاوية العقلية والحضارة التى تفصل بيننا وبين عصر المستقبل الذى عشت فيه تلك الفترة من الوقت ..

« فبالنسبة لدفن الموتى مثلا ، لم تقع عينى على أى علامة تدلنى على وجود مقابر من أى نوع لدى هؤلاء الناس . ولكن خطر لى أنه ربما كانت لديهم مقابر أو محارق فى موضع ما خارج دائرة اكتشافى .. وكانت هذه المسألة من أهم مايشغل ذهنى ويحيره . وفى الوقت نفسه لاحظت شيئا آخر ضاعف من حيرتى ، وهو ان اولئك الناس لايوجد بينهم عجوز ولا مريض ! ..

« ويجب أن أعترف لكم أن مرور الايام قلل كثيرا من قيمة آرائى او نظرياتى عن مدينة آلية مفرطة فى آليتها، وبشرية منحلة تتجه بسبب ترفها المفرط الى الانقراض .. ولكن تزعزع ثقتى بصواب هذه النظرية جعلنى أفكر فى تفسير آخر لما أراه حولى ، ولم أستطع أن أصل الى ذلك التفسير المقنع .. واكتفيت بوضع الفروض ..

« واتضح لى أن القصور العديدة الضخمة التى زرتها كانت أماكن للاقامة ليس الا ، فيها قاعات طعام ضخمة

وعنابر نوم واسعة .. ولم أكتشف فيها أى أثر للآلات التى تقوم على توفير معدات الراحة . وهؤلاء الناس أراهم دائما فى ثياب فاخرة جديدة ، لابد أنها تحتاج الى الغسل والكى باستمرار ، وتحتاج الى زيادة مطردة من الانتاج الجديد .. وكذلك الشأن فى نعالهم ، فقد كانت على صغر حجمها تدل على صناعة دقيقة معقدة ، ولابد أنها تصنع فى مكان ما بكيفية ما ..

« وأعجزنى أن أكتشف أى نوع من الحوانيت أو المشاغل او مؤسسات الاستيراد فى جميع البقاع التى زرتها باحثا منقبا .. وأعجزنى أن أجد للناس أى نوع من العمل أو الابتكار او الابتهاج ، فهم ينفقون وقتهم كله فى أنواع طريفة لطيفة من اللعب ، أو فى السباحة بين ضفتى النهر فى ماء صاف صفاء البللور .. أو يتبادلون ألوانا من الغزل الرقيق الخفيف ، أو ينامون فى ظلال الاشجار أو فى أبهاء النوم جماعات ..

« لقد حيرتنى حياتهم ، وزادتنى الايام دهشة وحيرة .. ولم استطع ان اعرف ولو على وجه التقريب الاساس الذى تقوم عليه موارد حياتهم اللاهية السهلة ..

« ومرة أخرة أسلمتنى تلك الحيرة الى التفكير فى مصير جهازى المفقود ..

« ساقنى ذلك الى التفكير فى موضوع آلة الزمن ، فلست ادرى اى قوة تلك التى نقلتها من موضعها الى جوف قاعدة تمثال أبى الهول . . ولاى غرض تم هذا النقل ؟ لم أستطع أن أتصور اجابة صريحة عن سؤالى هذا ولا تفسيرا معقولا لتلك الآبار الخالية من الماء ..

الوقوع فى الحب

« كان يعوزنى الدليل الذى أهتدى به فى الوصـول الى تأويل مقنع .. وتمنيت أن أجد بين الابنية كتابة المح فيها بقايا من اللغة الانجليزية استعين بمقارنة حروفها على فهم شىء من حقيقة ذلك العالم ..

« ولكن اليوم الثـالث من اقامتى فى حوض التيمز سنة ٨٠٢٧٠١ م كان أشبه فى نظرى بصحيفة حافلة بكتابة حروفها مجهولة عندى تمام الجهل . وبين عبارة وأخرى تطالعنى جملة كلمات انجليزية فصيحة ، فلا أفهم الرابطة بينها وبين سائر ذلك الكلام .. فاذا الصحيفة كلها فى نظرى معميات لا أفقه لها مغزى !

« وفى ذلك اليوم الثالث كسبت صديقا ، فبينما كنت أرقب مجموعة من أولئك القوم الصغار وهم يستحمـون عند شاطىء ضحل من شطوط النهـر ، أصيب شخص بتقلص فى العضلات واخذ يغوص مستسلما للتيار . . وكان التيار سريعا ، ولكنه ليس من القوة بحيث يجرف سباحا متوسط المقدرة . ولاشك فى أنكم ستتصورون مافى طباع اولئك القوم من النقص ، اذا قلت لكم ان ما من احد منهم حاول أن ينقذ ذلك المسكين الذى شرع يغرق أمام أعينهم وهو يصرخ صراخا ضعيفا ..

« وعلى الفور نزعت ثيابى ، وقذفت بنفسى فى الماء ،

واخرجت الغريق سالما الى البر .. فاذا بها فتاة ، أخذت أدلك أطرافها فأفاقت من الاغماء .. وارتدت الى حالتها الطبيعية ، فتركتها لانني لم أتوقع من ذلك الجنس الواهن الخلق والطبع أن يعرف شيئا اسمه الامتنان وتقدير المعروف .. ولكنى فى تلك المرة اخطأت التقدير !

« وقع ذلك الحادث فى الصباح .. وعندما عدت من جولة استكشافية بعيدة المدى بعد الظهر ، قابلتنى تلك الانثى الصغيرة بصيحات الفرح والابتهاج وقدمت الى عقدا كبيرا من الازهار .. صنعته خصيصا لى ، فتأثرت لهذه المظاهر تأثرا بالغا . ولعل ذلك كان بسبب ماسيطر على نفسى من الوحشة والغربة ، فبذلت أقصى جهدى لأعبر لها عن تقديرى العظيم لهديتها . وانتحيت بها جانبا، وجلسنا فوق مقعد حجرى وانهمكنا فى حديث معظم عباراته نظرات وابتسامات . وكان لحركاتها وتوددها من الاثر فى نفسى مثل ما لحركات الاطفال وتوددهم من الاثر فى نفوسنا نحن .. وجعلنا نتبادل الزهر ، وهى تقبل يدى وتمرغ فيهما وجنتيها وشعرها ، وحاولت أن أبادلها الحديث فى الحدود الضيقة التى أعرفها من لغتهم . فاكتشفت أن اسمها « وينا » ، ولم أعرف ماذا يعنى هذا الاسم عندهم ، ولكنه يبدو لى ملائما لها كل الملاءمة . وهكذا بدأت بيننا صداقة عجيبة دامت أسبوعا ، وانتهت على النحو الذى سأذكره لكم ..

« كانت « وينا » كالاطفال تماما فى كل شىء ، تتعلق بأذيالى وتصر على ملازمتى دائما وفى كل مكان .. فلما خرجت فى رحلتى الاستكشافية التالية حز فى نفسى أن أجهدها من شدة الجرى ورائى الى أن تركتها أخيرا ملقاة على الارض تنادى من خلفى باسمى فى صوت باك . ولكن

المشكلات الحيوية التى كنت أواجهها ، كانت أهم فى نظرى كثيرا من تلك المودة أو العلاقة الغزلية الغريبة .. ولم أعرف الا بعد فوات الاوان مبلغ قيمتى عند هذه المسكينة، والمكانة التى احتلتها فى قلبى بظرفهاورقتها وشدة ولائها. والحقيقة ان هذا التعلق من جانبها بشخصى وبكاءها عند ابتعادى عنها ، هو الذى جعلنى أشعر عنـــد العودة الى منطقة أبى الهول حيث تركتهـــا وكأنى عائد الى دارى الحقيقية . وكنت أظن كل مكان فى ذلك العالم ــ كأى مكان آخر ــ فيه الوحشة بالنسبة لى .. ولـــكن هأنذا أخيرا قد وجدت وجها أتطلع الى رؤياه ، وانقب بعينى باحثا عنه بين عشرات الوجوه .. بمجرد هبوطى الى سفح التل ..

« ومن « وينا » عرفت أيضا أن الخوف لم ينقرض من ذلك العالم ، فلم أعهد عليهـــا أدنى خـــوف فى النهار .. وكانت ثقتها بى لاحد لها . ولما خطر لى فى لحظة طيش أن أقطب وجهى متوعدا هللت لتقطيبى وضحكت منه . . ولكنها كانت تخشى الظلام ، وتخشى الظلال ، وتخشى كل شىء أسود أو معتم .. فالظلام هو الشىء الوحيد المرهوب لديها ، فكان ذلك غريبا أشد الغرابة فى نظرى . وحملنى ذلك على امعان النظر واعمال الفكر .. فاكتشفت عندئذ بين مااكتشفته من الحقائق عن هؤلاء القوم الصغار انهم يتجمعون فى تلك القصور الكبيرة بعد حلول الظلام وينامون زرافات ، فاذا دخلت عليهم وهم نيام بغير ضوء دب فيهم الذعر ..

« ولم يحدث أن التقيت بأحد منهـــم خارج الدور فى الليل ، أو نائما بمفرده داخـــل الدار . ولكننى كنت من الغباء بحيث لم أفد من درس هذا الرعب ، ولم تفلـــح توسلات « وينا » وأحزانها فى الحيلولة بينى وبين النـــوم

بمعزل عن هذه القطعان المتجمعة فى مراقدها ..

« كان اضطرابها عظيمـــا بسبب اصرارى على ذلك الانفراد فى النوم ، بيد أن تعلقها العجيب بشخصى تغلب فى النهاية على جزعها .. فقضت الليالى الخمس الاخـيرة من تعارفنا نائمة بجوارى وقد توسدت ذراعى ..

« وهنا يجب أن أذكر أننى فى الليلة السابقة على يوم انقاذها من الغرق ، تنبهت قرب الفجر على أثر حلم مزعج رأيت فيه نفسى غارقا فى لجة بحر ، وحيـوانات البحـر تتحسس وجهى بزعانفها الناعمة . وخيل الى وأنا لم أزل تحت سلطان النعاس أن حيوانا رمادى اللون انفلت خارجا من الحجرة .. وحاولت بعدها أن أعاود النـوم ، ولكنى شعرت بعدم ارتياح غامض فى تلك الساعة التى يتداخـل فيها الليل والنهار بحيث تبدو المرئيات واضحـة الجرم ولكن لايتضح لها لون .. فكأنها أشباح تلم أطيافها بعالم الواقع ، وهى ليست من دنيا الواقع . فنهضت وغادرت الحجرة الصغيرة الى البهو الكبير ، واخترقت النيام الى مدخل القصر وفى نيتى أن أفيد من هـــذا الارق بامتاع ناظرى بروعة شروق الشمس ..

« ورأيت القمر فى لحظات الغروب الاخـيرة ، بحيث تلاقى الشعاع الاخير من نوره الباهت ببواكير نور الفجر الشاحب .. فبدت لى الاشجار والخمائل حالكة السواد ، والارض قاتمة ، والسماء ناصلة اللون لابهجة فيها للعين . ولما رميت بطرفى الى مرتقى التل خيل الى أنى أرى ثمـة أشباحا . وأينما دققت النظر بدت لى أجسام بيضاء ، بل خيل الى مرتين أنى أرى مخلوقا منفـردا ابيض اللون شبيها بالقرد يرقى التل فى سرعة حثيثة . ولمحت عند

الاطلال المبعثرة هناك شرذمة من تلك المخلوقات تحمل جسما قاتما وتجرى به مسرعة ، ثم لم أتبين ماذا كان من أمرهم بعد ذلك لانهم تواروا عن عينى بين الاشجار . . وكان ضياء الفجر لم يزل دون المستوى الكافى للرؤية الواضحة ، وبرودة الطل تسرى فى أوصالى .. فكذبت نظرى ..

« وظللت طيلة ذلك الصباح مشغول الذهن بما تراءى لعينى الى أن طرد انقاذى « لوينا » تلك الخواطر من رأسى ..

« وذات صباح شديد الحرارة — هو صباح اليوم الرابع من اقامتى فيما أعتقد — رحت أنشد ملاذا من الحرارة والوهج الشديد بين الاطلال الهائلة ، عن كثب من القصر الكبير الذى انام فيه وآكل . وعندئذ حدث شيء عجيب .. فاذ انا أتسور تلك الانقاض الضخمة ، اكتشفت دهليزا ضيقا تراكمت الحجارة المنهارة فوقه فسدت نوافذه من الخارج ، وحجبت عنه ضياء الشمس وحرارتها. وبدا لى الدهليز — وأنا مقبل من وهج الضحى — وكأنه ديجور دامس ، فجعلت أتحسس طريقى وأخطو مترددا . ثم وقفت فجأة كالمأخوذ ، فقد رأيت عينين تلمعان فى الضوء المنعكس عليهما من الخارج وهما ترقبان حركاتى من اعماق الظلام ..

« وقاومت فزعى بعض الشيء وتقدمت خطوة الى الامام ، وتكلمت بصوت اعترف لكم انه كان اجش مضطربا ، ثم مددت يدى فلامست شيئا ناعما .. وحينئذ نحت العينان المحملقتان نظراتهما ! ..

سلالة أخرى

« وبينما انا على تلك الحال ، انفلت جسم ابيض من جوارى .. والتفت وقد بلغت الروحمنى التراقى ، فرأيت شكلا غريبا أشبه بقرد صغير رأسه مطرق بصورة غير عادية وهو يجرى مخترقا الرحبة الفارقة فى اشعة الشمس ، ثم ارتطم بكتلة من الجرانيت ، فترنح .. ولكنه بعد لحظة كان قد توارى بين الظلال تحت كومة أخرى من الانقاض ..

« ومن تلك النظرة الخاطفة المضطربة ، لم أستطع أن اكون فكرة واضحة عن ذلك الحيوان سوى بياضه الشاحب واحمرار عينيه الواسعتين ووجود شعر كتانى اللون فوق راسه وعلى ظهره .. فلم أستطع أن أتبين هل كان يجرى على أربع ، أم ان ذراعيه لفرط طولهما مع اطراق رأسه الشديد كادا يلمسان الارض ..

« وشجعنى فرار الحيوان فتعقبته بعد لحظة الى مكمنه . ولم أعثر عليه لاول وهلة ، ولكنى بعد أن تعودت العتمة ، عثرت على فوهة بئر من تلك الابار التى حدثتكم عنها ، فخطر لى أن ضالتى ربما اختفتداخل تلك البئر .. فأشعلت عود ثقاب ونظرت ، فرأيت الحيوان الصغير الابيض يحملق فى وجهى وهو منسحب الى الاعماق المظلمة ، فاقشعر بدنى وكأنى أنظر الى نموذج جنس مزيج من العنكبوت والانسان ..

« وكان هذا الحيوان يتسلق جدار البئر بسرعة .. وعندئذ لاحظت لاول مرة درجا وحاجزا من المعـدن على طول البئر . وأوشكت النار أن تحرق أصـابعى فألقيت الثقاب من يدى فانطفأ ، ولما أشعلت ثقابا آخر كان الحيوان قد اختفى ..

« ولست أدرى كم مضى على من الوقت وأنا جالس احدق فى أغوار تلك البئر ، فقد انقضت فترة غير قصـيرة قبل أن أوفق فى اقناع نفسى بأن ذلك المخـلوق الذى رأيته منذ قليل كائن بشرى . وشيئا فشيئا بدأت أضواء الحقيقة تتبلج امام بصرى .. وأدركت أن الانسان لم يظل بتوالى الاجيال نوعا واحدا ، بل تمايزت فيه فصيلتان من الكائنات البشرية . وليس الاطفال الظرفاء الحسان الذين يمرحون من حولى فى العالم العلوى هم السلالة الوحيدة لنوعنا .. بل هناك ايضا ذلك الحيوان المبيض البغيض الذى يعيش فى الظلام ، فهو الفصيلة الاخرى التى تشترك فى وراثة أجيالنا ..

« وانتقل بى هذا الى التفكير فى النظـريات والفروض التى خامرت ذهنى بصـدد التهوية والسراديب وتنظيم العمل الآلى تحت سطح الارض ، وعجبت كيف يمكن أن تكون العلاقة بين ذلك العالم السفلى القبيح وبين العالم العلوى النقى المشرق الجميل ؟ .. ترى ما الذى يكمن فى الظلام عند نهاية هذه الدرجات المعدنية ؟

« وجلست على حافة البئر ، أحدث نفسى بأنه لا مدعاة للخوف على كل حال ، وأننى يجب أن أهبط درج البئـر المعتمة لاصل الى الجواب الشافى عن جميع اسئلتى .. ولكنى فى الوقت نفسه كنت أشعر بخـوف شديد من

الهبوط الى ذلك المجهول !

« وبينما أنا حائر متردد ، أقبل اثنان من الاقوام الحسان الصفار يجريان ويلهوان في وضح الشمس ويتطارحان الغرام بصورة عفوية لطيفة .. فكان الذكر يغرى الانثى بالقاء الزهور عليها وهما يعودان الى ظل بعض الاشجار القريبة ، فلما أبصراني متكئا بذراعي على حافة البئر وأنا أحدق في اعماقها ظهر عليهما الاسف والغم . ويبدو أن الاقتراب من تلك الفوهات يعتبر في نظر هؤلاء القوم فساد ذوق !

وزاد احساسي بذلك ، عندما أشرت الى الفوهة وحاولت بما تعلمته من الالفاظ القليلة أن أسألهما بلغتهما عن مهمة تلك الآبار الى أين تؤدي ، فقد وضح لي استياؤهما وأشاحا عني بوجهيهما ..

« وتراءى لي ، بصورة غامضة جدا ، شكل تخطيطي لاسس الحياة الاقتصادية لعالم المستقبل البعيد وهي المشكلة التي كانت تحير عقلي .. ومؤدى فكرتي الجديدة أن تلك الفصيلة الاخرى من البشر تعيش تحت الارض . وكانت عندي ثلاث قرائن محددة على ذلك الاعتقاد . . القرينة الاولى هي هذا البياض الشاحب الذي تتميز به الكائنات التي تعيش معظم وقتها في الظلام . فما أشبه الوانهم بلون السمكة البيضاء التي تعيش في كهوف كنتوكي مثلا .. ثم هناك اتساع العينين وقدرتهما على أن تعكسا الضوء ، وهي خاصة مشتركة لدى الحيوانات الليلية .. وخير مثال على ذلك البومة والقطة .. ثم هناك أخيرا ذلك الاضطراب الواضح ، والتخبط في ضوء الشمس ، والفرار الى الظلام ، والاطراق الشديد بالرأس في الضوء مما يدل على شدة حساسية شبكية العين . ويعزز القول بأن

ندرة خروج هذه المخلوقات الى العالم العلوى على سطح الارض ناجمة عن تعود الحياة باستمرار تحت الارض عشرات الاجيال أو مئاتها ..

« فالارض اذن تحت قدمى ، لابد أن تكون حافلة بالأنفاق والسراديب ..وهذه الانفاق هى مقر آلنوع الجديد من البشر . والدليل على تشعبها وجود أبراج التهوية والآبار فوق جميع سفوح التلال وفى كل مكان الا على طول مجرى النهر .. فمن الطبيعى اذن ان أستنتج تخصص ذلك العالم السفلى فى القيام بجميع الاعمال الضرورية لتوفير الرفاهية للنوع البشرى الاخر الذى يعيش فى ضوء النهار ..

« وهو استنتاج ليس هناك ما ينقضه .. ولذلك سلمت به اساسا لمواصلة التفكير . وكانت الخطوة التالية هى التساؤل عن كيفية انقسام النوع البشرى الى فصيلتين متمايزتين بهذه الصورة الواضحة .. فلا بد أن هناك عوامل كافية نتج عنها هذا الانقسام ...

« وعلى ضوء ما نعهده فى زمننا الحاضر ، وظروفنا الاجتماعية الراهنة » من ازدياد شقة الاختلاف فى جميع الظروف بين العامل وصاحب العمل .. استطعت ان اتصور مفتاح ذلك التطور الضخم الذى تم تدريجيا فى الزمن المتطاول ، وخيل الى ان هذا التأويل واضح وضوح الشمس فى الضحي ..

« واعتقد انكم ستنظرون فى الغالب الى هذا التأويل نظرة انكار .. وسترونه مفرطا فى التعسف بصورة يأباها العقل ، ولكنى اطلب اليكم ان تستعينوا بما فى عقولكم من مرونة وما فى خيالكم من خصوبة .. ولا سيما أن تحت انظاركم فى ايامنا هذه بوادر تدل على هذا الاتجاه الى

استغلال باطن الارض على مدى واسع لتخفيف الزحام عن وجه الارض ولاخفاء المرافق القبيحة الشكل . فهناك المواصلات السفلية فى لندن وباريس (المترو) وجميع محطاتها تحت سطح الارض ، وبها مقاصف ومتاجر .. ثم هناك ايضا فى جميع مدن العالم دورات مياه تحت الارض . وهناك مطاعم ومراقص ومشاغل يزداد عددها كل يوم تحت سطح الارض ..

« وفى اعتقادى ان هذا الاتجاه الارضى السفلى ، أخذ يتسع ويستفحل بمرور الاجيال ، الى ان صارت المصانع كلها تحت سطح الارض . وزادت الاوقات التى يقضيها العمال فى الظلام الى ان وصل الامر فى المدة المديدة الى ما ذكرته لكم .. وانى اناشدكم ان تتجردوا من سلطان العادة المألوفة وتلقوا نظرة على العامل الانجليزى اليوم .. ألستم ترونه يقضى معظم الوقت فى ظروف صناعية تباعد ــ بصورة عملية ــ بينه وبين الظروف الطبيعية التى تتمثل فى وجه الارض ؟

« ثم اناشدكم أن تلقوا نظرة اخرى على الطبقة المترفة الثرية ، وسترون ان سلالاتها تزداد مع الزمن ترفا فى نشأتها وتربيتها .. وتزداد رخاوة وطراوة ..!

« وكلنا نعلم ان الخصائص المكتسبة ، اذا استمر الحال عليها أجيالا متعاقبة كافية انقلبت فجأة الى خصائص موروثة .. وهذا التفسير العلمى هو الذى يعلل انتهاء فوارقنا الاجتماعية مع الزمن الى فوارق نوعية موروثة تتبلور فى فصيلتين أو سلالتين من نوعنا البشرى الواحد .

« وهكذا ستتصورون على ضوء هذه الاعتبارات والقرائن كيف وقر فى ذهنى ان وجه الارض اصبح مقام المالكين .. وهم النسل البعيد لاصحاب العمل المترفين

المتعطلين الذين هم فى غنى عن كل عمل أو كدح أو كفاح، وان ما تحت سطح الارض هو العالم الذى انحصر فيه المعوزون أو المحرومون، وهم سلالة عمال عصرنا الذين تدور حياتهم كلها على الكدح والاجتهاد البدنى ...

« وعلى هدى المعهود فى احوالنا الاجتماعية، تصورت سكان ما تحت الارض ملزمين بدفع أجر باهظ عن مساكنهم السيئة، ولا بد ايضا من أجر اضافى نظير اجهزة التهوية .. وبسبب هذا الاجر، يجب ان يعملوا ساعات اضافية .. ومن تمرد منهم خنق بمنع التهوية عنه ..!

« ومع توالى الاجيال انقرض المتمردون، ولم تبق الا سلالة من المنقادين المستضعفين . وتم للسادة سكان العالم العلوى السلطان المستقر، وتأقلمت كل من السلالتين مع ظروفها الجديدة، واخلدت اليها مطمئنة . وخيل الى ان رقة هؤلاء وجمالهم، وان شحوب اولئك وبشاعتهم، مظاهر طبيعية لاحوال كل من السلالتين ...

« وهكذا بدا لى انتصار الحضارة الانسانية الذى طالما حلمت به وتمنيته، وقد شاه منظره ومسخ مخبره .. وتبينت ان نوعنا البشرى لم يحقق للاسف شيئا مما تخيلته من ثمرات التربية العقلية الواعية والتعاون الاجتماعى الرشيد .. فاذا امام عينى للاسف طبقة ارستقراطية بكل معنى تلك الكلمة متسلحة بسلطان علمى لا حد له، واتاح لها ذلك السلطان ان تستغل التنظيم الصناعى الراهن اكمل استغلال، وان تستخرج منه نتائجه المنطقية القصوى . فلم يتحقق لهؤلاء الانتصار على الطبيعة والسيطرة على قواها فحسب، بل تحقق لهم ايضا السيطرة على اخوانهم فى البشرية وتسخيرهم مثلما نسخر المعادن والطاقات والموارد الصماء سواء بسواء ..!

نحو مجهول جديد

« كان التأويل الذى وصلت اليه معقولا جدا فى نظرى .. ولكن احترامى للمنهج العلمى جعلنى اعتبر هذا التعليل مجرد ترجيح لا يرقى الى مقام الحقيقة المقطوع بصوابها .. وقد يدخل عليه البحث تعديلات جزئية أو كلية ، وقد يثبت بطلانه المطلق ...

« وحتى على فرض صواب هذا الرأى ، لابد ان يكون نجم هذه الحضارة الجبارة قد جاوز منذ زمن طويل جـــدا أوجه .. وطال جموحه الى مغيب الحضارات فى مهاوى الانحلال ، بل ان هذه الحضارة كما شهدتها كانت ممعنة امعانا لا يستهان به فى التحلل .. فضمانات الحياة وامانها المستقر بالنسبة لسكان وجه الارض قد ادى بهم بالتدرج البطىء الى الضآلة فى الحجم وفى القوة وفى الذكاء . ولم يكن التطور ماثلا امامى بطبيعة الحال لانى لم اتتبع مراحله .. ولكن الثمرة الواقعيــة لذلك التطــور كانت ماثلة امام نظرى ، وكان التعليل بالانحلال نتيجة الاسراف المستمر فى الحضارة والطمأنينة والترف هو التفسير الوحيــد لخروج هؤلاء الاقوام الصــغار من اصلاب بشرية يمثلها جيلنا الحاضر . .

« وأما بالنسبة للعالم السفلى وسكانه ، فلم يـكن الرأى عندى قد اســتقر بعد .. فما رايتــه من اولئك « المورلوك » ــ وبهذا الاسم يدعى اشباه القرود ســكان

ما تحت وجه الارض ـ تراءى لى بسببه أن التغييرات التى حدثت لفصيلتهم كانت أعمق واضخم مما حدث للفصيلة الجميلة التى تمرح فى ضوء الشمس ، واسمهم كما علمت « ايلوى » ...

« ثم ساورتنى بعد ذلك شكوك مقلقة .. لماذا استولى « المورلوك » على آلة الزمن ؟ فقد خامرنى الاحساس القوى بانهم هم الذين اخفوها .. « فالايلوى » ليست لديهم القوة ولا الذكاء ولا الاكتراث للقيام بذلك العمل فى حالة اضمحلالهم الفكرى والبدنى .. وحتى لو انهم هم الذين اخفوها ، فصداقتى لهم كان ينبغى ان تجعلهم يعيدونها .. ثم لماذا يخشى « الايلوى » الظلام بهذا الشكل؟

« ثم وجهت كل هذه الاسئلة الى « وينا » وحاولت كما ذكرت لكم آنفا أن أعرف منها شيئا عن العالم السفلى ، ولكن خاب ظنى . وفى بداية الامر لم تفهم المراد من اسئلتى .. ولما فهمته رفضت الاجابة . وأخذت ترتجف وكأن الموضوع الذى أخوض فيه كريه بدرجة تفوق الاحتمال .. فشددت عليها ، ولعلنى اسرفت فى الالحاح ، فانفجرت باكية ..!

« وكانت هذه اول قطرات من الدمع اشاهدها فى هذا العصر الذهبى ، فيما عدا دموعى شخصيا بطبيعة الحال .. فلما رأيتها تبكى زايلنى كل اهتمام « بالمورلوك » واتجه همى كله الى تجفيف دموع «وينا» ومحو الاسى من نفسها اللطيفة البريئة . وسرعان ما اشرق وجهها بالابتسام ، وراحت تصفق بيديها دهشة وطربا واعجابا عندما اشعلت امام ناظريها عود ثقاب ...

« وقد يدهشكم ان تعلموا انى قضيت يومين بعد ذلك محجما عن مواصلة الاستقصاء والتحرى عن اسرار

« المورلوك » وحياتهم الخفية فى الظلام ، فقد داخلنى نفور عجيب من تلك الاجساد الشاحبة التى يشبه ابيضاضها تلك الديدان وما اليها من الكائنات الحية التى نشاهدها محفوظة فى الكحول عندما نزور متاحف الحيوان . ثم ان ملمسهم بارد بصورة مقززة .. ولعل نفورى منهم راجع ـ الى حد كبير ـ الى ميل عواطفى نحو « الايلوى » .. وتقززهم من « المورلوك » شديد

« وفى الليلة التالية على كل حال لم أنم نوما طيبا .. ولعل صحتى كانت متوعكة بعض الشيء بسبب ما أعانيه من الاضطرابات والحيرة والشك . وخامرنى فى تلك الليلة ، مرة أو مرتين ، شعور عميق بالخوف لم أجد له مبررا واضحا . وأذكر اننى تسللت من حجرتى المنفردة بلا صوت الى البهو الكبير الذى تجمع القوم للنوم فيه تحت ضوء القمر .. وكانت «وينا» فى تلك الليلة نائمة بينهم ، فشعرت بالطمأنينة لوجودى معهم .

« وخطر لى عندئذ ان القمر سيتضاءل بعد بضعة ايام، ويدخل فى التربيع الاخير ، فتكون الظلمة فى الليل أشد. وتتسع الفرصة أمام « المورلوك » لارتياد وجه الارض اثناء الليل الحالك ، فقضيت اليومين التاليين وانا أتوجس مما سيحدث ، ولكنى أرى الاقدام واجبا تحتمه الظروف .. فان كان مقدرا لالة الزمان أن تسترد ، فالوسيلة الوحيدة لذلك هى هتك الستار عما يكتنف ذلك العالم السفلى من اسرار ، ولكنى مع هذا كنت مشفقا من مواجهة ذلك المجهول ..

« وتمنيت لو كان لى فى مشروعاتى الكشفية التى أزمع القيام بها رفيق يؤنسنى .. بيد أن الوحدة التى أوجدتنى

الظروف فيها كانت من نوع جائر موحش . وكلما تخيلت نفسي وأنا أهم بتسلق الدرج داخـــل البئر الى الاغوار المظلمة ينقبض قلبي ، لانى لم أشعر بأى نوع من الطمأنينة لما يمكن أن يجرى وراء ظهرى .. وتحـــيرت كيف أحمى ظهرى من الغوائل فى الظلام ..

« ولعل هذا الافتقار الى الاستقرار والطمأنينة ، هو الذى قاد قدمى الى مناطق بعيدة عبر الخمائل والبساتين والتلال فى رحلات كشفية أحاول بها ان أسرى عن نفسى ما ألقاه من الشكوك والوجل ..

« واتجهت فى تلك الرحلات الى الجنوب الغربى صوب المنطقة المعروفة الان باسم غابة « كومب » . وهناك لمحت من بعيد بناء ضخما شامخا أخضر اللون ، يختلف طابعه العام عن جميع الابنية التى شاهدتها من قبل .. فهـــو أكبر مساحة من أرض القصور والاطلال التى مرت بى ، وواجهته ذات طابع شرقى ، يشع منها بريق أخضر شاحب ضارب الى الزرقة ذكرنى بنوع معين من الخزف الصينى

« وأوحى الى هـــذا الاختلاف فى المنظر اختـــلافا فى الاستعمال ، فقررت أن أمضى فى استكشافى صـــوب ذلك القصر .. ولكن الساعة كانت متأخرة ، والتعب كان قد نال منى . فاعتزمت تأجيل المغامرة الى اليوم التالى ، ثم عدت الى « وينا » وما استقبلتنى به من ابتهاج وملاطفة

« وفى الصباح التالى اتضح لى أن ما أثاره قصر الخزف الاخضر من الفضول مدعاة لصدمة جـــديدة من خيبـــة الآمال . وليس من الاكتشاف والرحلة أى جدوى سوى ارجاء الخطوة الحاسمة يوما آخر . وقررت على الاثر أن أهبط البئر من غير تضييع للوقت ، فاتجهت فى أول النهار

نحو بئر قريبة من الخرائب التى تكثر فيها كتل الجرانيت والالومنيوم ..

« وكانت « وينا » الصغيرة تجرى بجانبى ، أو لعله من الاوفق أن أقول انها كانت تتواثب وترقص فى أثرى ، الى ان بلغت البئر .. فلما رأتنى أنحنى فوق فوهتها وأطل فى أغوارها ، بدا عليها الهم بصورة غريبة .. فرفعتها بين ذراعى وقبلتها ثم وضعتها على الارض قائلا :

ـ وداعا يا عزيزتى الصغيرة « وينا » ..

« ثم أخذت أتحسس حافة البئر بحثا عن الدرج ومقابض السياج . وكنت أفعل ذلك فى عجلة لانى خفت عند الابطاء ان تخذلنى ارادتى واعدل عن الرحلة ..

« وكانت « وينا » فى اللحظات الاولى ترمقنى بدهشة بالغة وحيرة شديدة ، ثم أطلقت صرخة فظيعة وجرت نحوى وتعلقت بى .. وراحت تجذبني وتشدنى بيديها الصغيرتين . وأعتقد أن معارضتها زادتمن توتر أعصابى ، وحفزتنى على المضى ... فدفعتها عنى ، وأخالنى كنت فظا بعض الشيء . وفى اللحظة التالية كنت قداعتليت الدرج وصرت فى حلق البئر . ورأيت الذعر البالغ على ملامحها الجميلة ، فابتسمت كى أوحى اليها بالطمأنينة .. ثم انصرف اهتمامى الى المقابض التى أتعلق بها فى هبوطى خوفا من أن تكون غير متينة ..

« واستمرت عملية الهبوط مقدارمائتى ياردة . . والدرج عبارة عن قضبان من المعدن بارزة من جدار البئر ، على مسافات مخصصة لمخلوق أقل منى حجما وأخف وزنا . ولذا أدركنى التعب بسرعة .. وليت الامر وقف عند حد

التعب ، أذن لهان الخطب ! فقد التوى أحد تلك القضبان فجأة وكاد يلقى بى الى الأغوار السحيقة من تحتى ، وظللت لحظة وأنا معلق من يد واحدة .. ولكن الله سلم. وكان ذلك درسا لى كى لا أتوقف للراحة وأنا معلق بتلك القضبان ، وواصلت الهبوط بعد المائتى باردة وعضلاتى تؤلمني ألما شديدا . وكلما نظرت الى فوق رأيت من خلال فوهة البئر قرص السماء الزرقاء ووجه « وينا » يبدو كنقطة سوداء ..



صراع

« وأخيرا لمحت كومة تبعد نصف خطوة عن يمينى فى جدار البئر .. وتنفست الصعداء وأنا أدس بنفسى فى فوهتها ، فاذا بى فى نفق أفقى ، فألقيت بنفسى على الارض والتمست شيئا من الراحة التى طال احتياجى اليها . والحقيقة اننى لم اشعر بمبلغ تعبى الا عندماالقيت بجسمى المجهد على أرض النفق ، وسمحت لعضلاتى المجهدة أن تسترخى .. والأعجب من هذا أن ذعرى من خطر السقوط ، وأنا أهبط البئر ، لم يتجسم أمامى الا بعد لحظة الوصول ! ..

« ولست أدرى كم مضى من الوقت وأنا مستلق بتلك الصورة على أرض النفق عند الكوة التى تصله بالبئر ، فلم أتنبه الا على لمسات يد ناعمة تتحسس وجهى !

« وهببت واقفا فى ذعر ، وعمدت يدى الى علبة الثقاب فأشعلت عودا منها على عجل .. فرأيت فى ضوئه المتوهج وسط الظلمة الدامسة ثلاثة مخلوقات مطأطئة شبيهة بذلك المخلوق الذى رأيته من قبل بين الاطلال فوق وجه الارض ، وكان الثلاثة يتراجعون أمام ضوء الثقاب. وليس فى هذا وجه للعجب ، فماداموا يعيشون فى الظلام الحالك .. فلابد أن تكون عيونهم كبيرة الحجم شديدة الحساسية لاشعة الضوء ، شأنهم فى ذلك شأن الاسماك التى تعيش فى الاغوار السحيقة من البحار . وحدقاتهم تعكس

الضوء بوضوح فى تلك الظلمة التى تبدو لى تامة خالية كل الخلو من أشعة الضوء .. ولم يبد عليهم أى خوف منى فيما عدا عود الثقاب الذى أشعلته ، فجعلهم يفرون بغير تفكير وبغير تردد ليتواروا فى منعطفات النفق المظلمة .. وهناك كمنوا ليرمقونى بنظراتهم بصورة غريبة كل الغرابة

« وحاولت أن أناديهم ليدنوا منى .. ولكن يبدو أن لغتهم كانت مختلفة كل الاختلاف عن لغة « الايلوى » سكان وجه الارض . وفت هذا فى عضدى بصورة واضحة ، حتى أننى فكرت فى العودة بعد أن صرت على ابواب اكتشاف ماثل لعينى ، ولكنى قلت لنفسى :

ـ لقد أمسى التراجع مستحيلا الان ، وليس أمامك الا المضى فى الاكتشاف ! ..

« ورحت أتحسس طريقى على طول النفق ، فوجدت ضجة الآلات تزداد بصورة ملحوظة .. ثم اتسع النفق ووجدت نفسى فى رحبة فسيحة فأشعلت عود ثقاب آخر ، ورأيت على ضوئه أننى داخل كهف هائل كثير الاعمدة والاقبية ، تمتد أبعاده فى الظلمة الحالكة فيما وراء النطاق الذى يصل اليه ضوء الثقاب ، فهذا الضوء الهزيل هو أقصى ماتيسر لى ..

« وأكاد أجزم أن ذاكرتى فى هـذا الموضع يكتنفها الغموض .. فما بقى فى ذهنى من المشاهدات فى تلك اللمحة هو منظر أشكال ضخمة جاثمة فى الظلام أشبـه ماتكون بالآلات الكبيرة ، تترامى ظلالها الضخمة فى ضوء الثقاب . وفى هذه الظلال توارى « المورلوك » من الوهج المزعج .. ولما أوغلت قليلا أحسست بالهواء يثقل على صدرى ، ولم يكن خاليا من الرائحـة ، ولست أعنى رائحـة الرطوبة

المفروض انها تفوح من اعماق الارض ، بل اعنى رائحة اخرى ايضا أجفلت منها ، لانها رائحة دم حديث عهد بالسفك ، وهى رائحة لم يعهدها أنفى فى ذلك العصر الذهبى من قبل ..

« وفطنت على الاثر لوجود مائدة صغيرة من المعدن الابيض وضعت فوقها صحاف وجبة من طعام .. فلما دققت النظر علمت أن « المورلوك » من اكلة اللحوم . ونظرت الى الفخذ الاحمر وتعجبت ، فما هو هذا الحيوان الكبير الحجم الذى ظل باقيا ولم ينقرض ؟ !

« وكان الموقف على الجملة رهيبا .. فرائحة الدم مثيرة ، ومنظر اللحم النيىء كريه . والظلال الضخمة يكمن فيها هؤلاء « المورلوك » فى انتظار انطفاء عود الثقاب كى يهجموا على ! وسرعان ما أتت النار على العود وأوشكت أن تحرق اصبعى ، فألقيت به على الارض ..

« وشعرت بالسخط على نفسى لسوء تقديرى للفروض ، عندما بدأت هذه المغامرة الفذة .. فقد كنت من الطيش بحيث رتبت أمورى وانا أستقل آلة الزمن على اساس واحد ، هو أن اهل المستقبل سيكونون أرقى منا من جميع النواحى ، ولم يخطر ببالى أن التطور قد يعنى فى مرحلة من المراحل الانحدار والانحلال ، وفاتنى كذلك أن لكل شيء اذا ماتم نقصان ، فمجاوزة الحد فى السيطرة على العلم وقوى الطبيعة مجلبة للراحة الطويلة التى هى باب الضعف والفساد ..

« وبسبب هذا التقدير المختل ، لم اجلب معى الى دنيا المستقبل أسلحة من أى نوع ، ولا عقاقير .. حتى الطباق لم أحضره معي ظنا منى أنه سيكون ميسوراً . وكم هفت

نفسى الى أنفاس من الطباق فى تلك الوحشة المحفوفة بالحيرة والضيق .. بل أسوأ من هذا وذاك ، أنى لم أحضر معى كمية كافية من الثقاب. وآه لو كنت فكرت فى احضار آلة تصوير ! اذن لامكننى أن التقط فى طرفة عين ذلك المنظر الفريد للعالم السفلى ، ولكان فى وسعى الا اعتمد على الذاكرة الخوانة ، فأنظر وأتمعن فى الصورة الان على مهل ، وأعرضها على أنظاركم .. ولكن الواقع المؤسف لاتغنى فيه الحسرات ، وهكذا وجدت نفسى واقفا هناك مجردا من كل سلاح سوى القوة التى زودتنى بها الطبيعة متمثلة فى يدى ورجلى وأسنانى ، بالاضافة الى أربعة أعواد من الثقاب بقيت فى حوزتى !

« وكنت خائفا من شق طريقى وسط كل تلك الآلات فى الظلام .. وندمت جدا على اسرافى فى اشعال أعواد الثقاب لتسلية « وينا » ، ولكن لم يخطر ببالى من قبل أن الحاجة ستكون ماسة للاقتصاد فى شىء زهيد كهذا ، ولا سيما أن منظر العجب البرىء على وجوه « الايلوى » اللطيفة عند رؤية النار الغريبة عن عالمهم تماما كان يغرينى بالاسراف فى تلك المتعة ! ..

« وهاأنذا الآن وليس تحت يدى الا أربعة أعواد ، وقد أطبق الظلام من حولى .. وهاهى ذى يد ناعمة تلمس يدى ، وهاهى ذى أصابع رخوة تتحسس وجهى . وملأت خياشيمى رائحة نفاذة غير مستحبة ، وخيل الى أنى اسمع تنفس جمهرة من أولئك المخلوقات البغيضة . ثم شعرت بعلبة الثقاب تستل من يدى بلطف ، ولكنى اطبقت يدى عليها . وامتدت أيد أخرى وراء ظهرى تتحسس ثيابى ، فاستولى على اشمئزاز شديد . وزاد من وطأة الامر على نفسى ، أنى كنت أجهل تمام الجهل أسلوبهم فى التفكير .. فلم ادر

ماذا يمكن أن يفعلوا فى أى لحظة بشخصى ..

« وأول ماخطر ببالي هو الصراخ .. فجعلت أزجرهم بصوت مرتفع ، حاولت أن أجعله أضخم مافى وسعى .. فأجفلوا مبتعدين عنى ، بيد أن ابتعادهم لم يدم لحظة واحدة ، ثم أحسست بهم يقتربون منى وقد تعلقوا بى بجرأة أشد ، وهم يتهامسون بأشيـاء لا أدرى ما هى ، فأصواتهم بدت غريبةجدا فى أذنى .. وارتعدت أوصالى ارتعادا قويا ، وصرخت فيهم صرخات متقطعة لا معنى لها . ولكنهم فى هذه المرة لم يفزعوا فزعا جديا ، وأخذوا يضـحكون بنبرة غريبـة منفـرة وهم يزيدون من التصاقهم بى ..

« وأعترف لكم أنى خفت خوفا شديدا جدا .. ولذا قررت أن أشعل عود ثقاب ثم أفر هاربا محتميا بوهجه ، وهكذا فعلت .. فقد أخرجت ورقة من جيبى أشعلتها من الثقاب ، وبذلك استطعت الوصول الى مدخل النفق ..

« وما كدت أصل الى المدخل حتى احترقت الورقة عن آخرها ، وسمعت فى جوف الظلام حركات « المورلوك » ولغطهم كأنه وسوسة الريح بين أوراق الشجر أو سقوط المطر على زجاج النوافذ .. ثم جدوا فى أثرى ..

« وما هى الا لحظة حتى تعلقت بى أيد كثيرة .. وكان واضحا كل الوضوح أنهم يحاولون اعادتى الى داخـل النفق ، فلم أجد بدا من اشعال ثقاب آخر لوحت بضوئه فى وجوههم . ولا يمكنكم أن تتصوروا بشاعة سحنهم عن قرب .. لقد أصابنى الغثيان من تلك الوجوه الشاحبة الخالية من الأذقان ، وتلك العيون الحمـراء العاطلة من

الاهداب والجفون ، وهم يحملقون مذهولين وقد العماهم ضوء الثقاب

« ولكنى لم أتريث لاعيد النظر ، بل أسرعت بالتراجع .. ولما انطفأ عود الثقاب الثانى أشعلت الثالث ، وأوشك أن ينتهى عندما وضعت يدى على أول مقبض فى جدار البئر . وفى تلك اللحظة امتدت أيدى « المورلوك » الى اقدمى ، وأخذوا يجذبوننى . فأشعلت العود الرابع بيد انه انطفأ . فاستجمعت قوتى وجعلت أرفس ، وتخلصت منهم ماعدا واحدا تعلق برجلى وأوشك أن يستبقى حذائى غنيمة باردة فى يده !

« وخيل الى أن التسلق لايؤذن بانتهاء .. وأصابنى فى الثلاثين قدما الاخيرة غثيان فظيع ، ووجدت مشقة كبيرة فى الاحتفاظ بتوازنى . أما الاقدام الاخيرة فكانت صراعا هائلا ضد الاغماء .. وكم مرة دارت رأسى وخيل الى أنى واقع لا محالة فى الجب ...

« وأخيرا قيض لى الصمود ، ووصلت الى سطح الارض . وما أن أحسست بضوء الشمس يغمرنى حتى ارتميت على العشب .. وكانت التربة تبدو لى زكية الرائحة بعد تلك الفترة القاسية من التخبط فى الظلام والعفونة ..

« واذكر تماما اننى تنبهت على « وينا » وهى تقبل يدى واذنى . ومن حولها جماعة من « الايلوى » يلغطون بأصواتهم المرحة الرخيمة .. ثم لم اذكر بعد ذلك شيئا ، لأننى فقدت رشدى فى نوبة اغماء طويلة ...

« والحقيقة أن حالتى بدت لى الآن ، وقد صارت أسوأ من ذى قبل ، لاننى كنت قبل تلك الخطوة لا اشعر

باليأس .. وكان قلقي وجزعي لضياع آلة الزمن يكتنفه دائما أمل فى الفرار والنجاة . بيد أن هذا الامل قدارتطم الآن على صخرة اكتشافاتى الجـديدة .. وفيما مضى أيضا كنت اخالنى متحللا من الموانع والعوائق اللهم الا بساطة أولئك الاقوام الصغار وسـذاجتهم الطفلية الى جانب بعض القوى المجهولة التى كنت أمنى النفس بأننى حرى أن أتغلب عليها متى أحسنت فهمها . أما الآن فقد برز الى الميدانعنصر جديد تماما ..عنصر مزعج مقزز هو هؤلاء « المورلوك » .. ففيهم شيء لا انسانى ، شيء يفيض بالشر .. !



الظلام

« والعدو الذى كنت أرهبه قد يدهشكم أن تعرفوه .. فما كان ذلك العدو سوى الظلام الذى يسود فى ليالى المحاق والهلال الوليد . وكانت « وينا » قد غرست هذه الفكرة في ذهني ببعض ملاحظاتها التى بدت لى فى اول الامر غير مفهومة ، وكلها ملاحظات بصدد ما سمعته « الليالى الحالكة الظلام » . أما الآن فلم يكن من العسير على أن أفسر تلك الاقوال ، وأتصور على ضوء تجربتى الرهيبة ما يمكن أن تعنيه الليالى المظلمة القادمة ..

« وكان القمر بعد اكتماله الماضي فى نقصان متواصل، وكل ليلة تزيد فيها فترة الظلمة الحالكة عن الليلة السابقة .. وهأنذا الآن أفقه ــ دنو بوجه التخمين على الاقل ــ سبب خوف أولئك الاقوام الصغار من ظلمات الليل . وصرت أتساءل فى قلق، وأتخيل فى غموض ألوان الشرور الوبيلة التى قد يقترفها « المورلوك » فى ختام الدورة القمرية ومطلع الدورة التالية . ثم أسلمنى التفكير الى الاعتقاد اعتقادا جازما بأن تأويلى السابق لتحول السلالات البشرية الى فصيلتين من السادة والعبيد او الحكام والصناع كان عرضة للخطأ ..

« ان الفصيلتين اللتين نتجتا عن تطور الانسان فى المدى البعيد قد اتجهتا الى نوع جديد تماما من العلاقات، فاعترى الانحلال فصيلة « الايلوى » الحاكمين المسيطرين

حتى انتهت سلالتهم الى أولئك الافراد التـافهين الذين استنزفت الرخاوة والترف قوة طباعهم وطاقة ذكائهم ٠٠ فهم وان بقيت لهم ملكية الارض على سطح كوكبنا ، لان أجيال « المورلوك » المتعاقبة ألفت حياة الظلام وصـار الضياء يؤذيهم أذى أليما ، فان العـلاقة لم تعد علاقة سـيطرة ٠٠ بل الاقـرب الى الرجحان أن « المورلوك » يخدمون « الايلوى » ويقدمون اليهم الاكسـية الفخمة ووسائل الغذاء والحياة جريا على عادة قديمة موروثة ٠٠ مثلما ورث الجواد عادة نبش الارض بسنابكه ، أو مثلما يستطيب الانسان قتل الطير والوحش على سبيل الرياضة، لان الاجداد القدامى كانوا يفعلون ذلك عن ضرورة ٠٠ فلما زالت الضرورة والحاجة بقيت عادة الفعل المتوارثة تؤدى لغير غاية واضحة !

« ولكن من الواضح أن النظام القديم قد بقيت له آثار وظلال ٠٠ فالانسان الذى قهر أخاه الانسان قبل آلاف الاجيال ونفاه من عالمه المضىء الى عالم الظلام ، ها هو ذا يجد أخاه قد عاد اليه بعد الغيبة الطويلـة ، وقد تغير كلاهما بحكم بيئة حياته ٠ ولذا نرى « الايلوى » يستعيدون شيئا كانوا قد فقدوه ، ويتلقنون على يد « المورلـوك » درسا يرد الى وجدانهم الاحساس بالخوف ٠٠ وهـذا الاحساس الذى كانوا قد نسوه منذ مئات الآلوف مـن السنين ٠٠

« وعندما وصلت فى تأملاتى وتقديراتى الى هذا الحد، تذكرت فجأة منظر ذلك اللحم الذى رأيتـه على المـائدة المعدنية فى العالم السفلى ٠٠ وكان عجيبا فى الواقع أن تخطر ببالى هذه الفكرة وكأنها ليست جزءا طبيعيا من تيار أفكارى ، بل على صورة سؤال ملح اشد الالحاح على ذهنى

من الخارج •• وحاولت أن أتذكر منظر ذلك اللحم ، وخيل الى أن فى ذلك المنظر شيئا غير مألوف ، لست ادرى ما هو •• ولكننى عندما ربطت بين ذلك اللحم وبين انقراض الحيوانات من وجه الارض ، ثم وضعت فى كفة التقدير شـــدة الفزع الذى يشعر به « الايلوى » ازاء « المورلوك » ، بدأت الصورة العامة تزداد وضوحا وتكاد تبلغ حد اليقين •• وعلى الفور بدأ جهاز الغرائز والعقل عندى يعمل على المستوى المعهود فى حياة سلالتنا البشرية الراهنة ، ولئن كان الاقوام الصغار يشعرون أمام الخوف والجزع بالعجز والتهالك ، فما كان هذا هو شعورى •• لم يفت الخوف فى عضدى ، ولم يشل تفكيرى ، بل زاده توقدا ونشاطا ، وبدأت أفكر فى اتخاذ وسائل الدفاع وعدته • وقررت ان أستعد بالاسلحة المناسبة ، وأن يكون نومى فى موضع حصين ان لم يتيسر أن يكون فى موضع مأمون •• ففى استطاعتى متى وجدت هذا الحصن أن اتخذ منه قاعدة للدفاع والهجوم ، أواجه منها أعدائى، بعد أن عرفت مدى الخطر الذى اتعرض له فى ظلام الليل •• والحقيقة أنه لم يعد فى استطاعتى أن أنام ما لم يكن فراشى بمنأى من هؤلاء الاعداء ، وصرت أرتجف رعبا كلما تخيلت كيف كانوا يفحصوننى وانا نائم لا أدرى عن وجودهم شيئا ••

وخرجت أهيم طيلة بعد الظهر على طول مجرى التيمز بحثا عن المأوى الامين المنشود •• فلم أعثر على شىء يفى بالغرض على الصورة التى تكونت فى ذهنى ،فجميع الابنية والاشجار تبدو قريبة المنال غاية القرب من أولئك المخلوقات الماهرة فى التسلق ، بعد الذى شهدته بالفعل من براعة « المورلوك » فى الصعود من الآبار العميقة أو الهبوط اليها ••

« وعندئذ خطر لى قصر الخزف الاخضر وجدرانـــه اللامعة الناعمة •• ورجحت أنه قد يكون ملاذا مناسبا • وكان الوقت أصيلا عندمـــا حملت « وينا » كما احمل الاطفال فوق كتفى ، ورحت أصعد التلال متجها الىالجنوب الغربى حيث ذلك القصر ••

« والمسافة الى ذلك القصر بدت فى نظرى بين سبعة أميال وثمانية ، ولكنها فى الواقع لم تكن لتقل عن ثمانية عشر ميلا •• وكنت قد لمحت ذلك القصر بعد ظهر يوم رطب • ومن شأن الرطوبة أن تقصر المسافات تقصيرا خادعا ، ويضاف الى هذا أن كعب أحد الحذاءين قد بلى ، وأن مسمارا أطل برأســـه من النعل •• فـكنت أمشى كالاعرج ••

« وكانت الشمس قد غربت منذ وقت قصير ، عندما بدأ شبح القصر لنظرى من بعيد حالك السواد على صفحة من رقعة السماء باهتةالاصفرار •• وكانت« وينا »قد أبدت سرورا عظيما جدا عندما وضعتها فى بداية الامر فوق كتفى وأخذت أسير بها •• ولـــكنها بعد فترة من الوقت رغبت الى فى أن انزلها الى الارض وأنشأت تجرى بجانبى •• وتتركنى بين خطوة وأخرى لتبتعد عنى يمنة او يسرة كى تقطف الازهار ، وترشقها فى جيوبى ••

« والحقيقة أن جيوب ثيابى كانت مصدر حيرة مستمرة ل « وينا » ثم استقر رأيها أخيرآ على أن هذه الفتحات نوع عجيب من الزهريـــات ، أو هى على الاقــل قــررت أن تستخدمها فى تلك الغاية ،وهــذا يذكرنى بشىء كدت أنساه ! •• فعندما غيرت سترتى وجدت •• »

وتوقف رحالة الزمن عن الكلام ، ثم وضع يده فى

جيبه وأخرج زهرتين ذابلتين القاهما على المنضدة الصغيرة تشبهان بعض الشيء أزهار الخبازى بيد أنها كانت كبيرة جدا وبيضاء .. وبعد ذلك استأنف حديثه من حيث انقطع :

« ومع انتشار الظلام ، وسكون المساء فوق التلال ، بدأ التعب يدب فى أوصال « وينا » الرقيقة ، وأرادت أن تعود الى القصر المبنى من الصخر الرمادى الذى تعودت أن تبيت فيه معى .. فجعلت أشير الى ناحية قصر الخزف الاخضر ، وحاولت أن أفهمها أننا سوف نلتمس هناك ملاذا أمينا لنا من مخاوفها ..

« وهل تعرفون ذلك الصمت الكبير الذى يرين على الاشياء قبل اشتداد العتمة ؟ .. حتى النسيم يكف عن تحريك ذؤابات الاشجار ، وانا احس فى لحظات ذلك الصمت بشىء من التوقع الغامض.. فالسماء تبدو صافية مترامية الابعاد ، خالية الا من البقايا الاخيرة لشعاعات الغروب . وفى تلك الليلة تملكت نفسى الوان جديدة من المخاوف .. فكأنما ارهف هذا الهدوء المعتم حواسى ارهافا خارقا للمعتاد .. حتى لقد خيل الى انى استطيع أن أشعر بتجوف الارض تحت قدمى ، وأكاد أيضا أن أبصر خلال الثرى غدو « المورلوك » ورواحهم فى نشاطهم الدائب وهم يتربصون انتظارا لحلول الظلام الدامس ..

« وخيل الى ايضا فى تلك اللحظة أن « المورلوك » سيتلقون غزوى لاوكارهم الغائرة البعيدة المزار وكأنه اعلان للحرب عليهم من جانبى .. ولكن لماذا على كل حال بدأوا هم العدوان بالاستيلاء على آلتى ، آلة الزمن ؟

« ومضينا فى طريقنا والضياء يختفى رويدا رويدا .. ثم أخذت شفافية آفاق السماء تقل ، وبرزت النجوم واحدا تلو الاخر • واشتدت عتمة الارض ، وبدت الاشجار ظلالا سوداء .. وثقلت على « وينا » وطأة الخوف والتعب، فأخذتها بين ذراعى وجعلت أتحدث اليها واداعبها واهون عليها وأنا سائر فى طريقى ، فلما اشتدت العتمة لفت ذراعيها حول عنقى وأغمضت عينيها ودست وجهها فى كتفى ..



عقوبة طبيعية

« على هذه الصورة ، هبطنا سفح تل الى واد عميق .. وكدت فى الظـــلام أتردى فى مجرى نهر صغير ، ثم خضت ماءه القليل الغور وخرجت الى الضفة الاخرى .. فاجتزت عددا من القصور المعدة للنوم فى وسطها تمثال أشبه بتماثيل اله الحقـول والرعاة ، لولا أنه بغير رأس ومن حوله خميلة من أشجار السنط ...

« والى أن بلغت ذلك الموضع من مرحلتى ، لم يظهر لى شىء من بوادر نشاط « المورلوك » .. ولكن الليل لم يزل بعد طفلا ، والساعات الشديدة الحلكة التى تسبق ظهور التربيع الاخير من القمر لم يحن وقتها بعد ، وفى كنف التل التالى ، استطعت أن أرى غابة كثيفة مترامية تمتد ظلالها أمامى . وترددت كثيرا لأنى لم أتبين لها آخرا عن يمين أو يسار ، وشعرت بالتعب .. وكان الكلال قد نال من قدمى بصفة خاصة ، فتوقفت عن السير وأنزلت « وينا » عن كتفى ثم جلست فوق العشب ...

« ولم أستطع وأنا جالس هناك ، أن أرى هيكل قصر الخزف الاخضر بعد اشتداد الظلمة .. ولم أعد على يقين من صواب وجهتى ، وأمعنت النظر فى كثافة الغابة الملتفة الأشجار وتساءلت عما عساه يكمن فى داخلها من المخاطر .. فمتى دخلها الانسان غابت النجوم عن عينيه كلية . وعلى فرض أنه لا توجد هناك مخـاوف من نوع آخـر ، فحسبى أن جذور الاشجار وفروعها ستجعلنى أتخبط

فى طريقى . واشتد احساسى بالتعب بعد أن جلست ، فقررت ألا أواجه متاعب السير فى الغابة ليلا ، وفضلت أن أقضى الليل على سفح التل ..

« وسرنى أن « وينا » كانت غارقة فى النوم ، فلففتها فى سترتى وجلست بجانبها انتظر طلوع القمر . وكان الهدوء سائدا والمكان خاليا تماما ، ولكن من أعماق الغابة المظلمة كنت أسمع أصواتا فى الحين بعد الحين تنم عن الحياة .. وكان وميض النجوم فى السماء الصافية يؤنس وحشتى ، وجعلت أتأمل صفحة السماء ، فلاحظت أن المجموعات الفلكية العتيقة المألوفة لنا قد تغيرت أوضاعها ونظمها وصارت منها مجموعات غير معهودة لنا .. اللهم الا « طريق التبانة » فقد ظلت فيما خيل الى على حالها المعهود لنا نثارا من شذرات مضيئة . والى الجنوب رأيت نجما احمر كبيرا شديد اللمعان ليس لنا به عهد .. ونفعنى التأمل فى الكواكب ومساراتها لأنه أظهر لى أن اهتماماتى ومخاوفى تافهة ضئيلة جدا بالنسبة لرحابة الكون .. بل قد بدا لى شأن الارض كلها، وما يتجاذب الحياة الارضية من المتاعب ، بالغ التفاهة فى ذلك الضوء الكونى الذى ينبعث من نجوم تتحرك بانتظام واطراد وعدم اكتراث من أغوار ماض مجهول الى غياهب مستقبل مجهول ...

« ان النجوم لم تزل على حالها، ولكن الانسان قد تحول من كائن ذكى قوى الى سلالة ضعيفة واهنة وسلالة اخرى متوحشة ضارية . وسرت فى أوصالى رعشة ، وزاد يقينى من أمر ذلك اللحم الذى رأيته على موائد «المورلوك» .. ونظرت الى «وينا » الصغيرة وهى نائمة بجوارى ووجهها الابيض يبدو مشرقا كالنجوم التى تلمع من فوقى ...

« واجتهدت طوال تلك الليلة العصيبة أن أبتعد بذهنى قدر الطاقة عن التفكير فى « المورلوك » وقصرت متن الليل بمحاولة العثور بين المجموعات السماوية على اثار تذكرنى بالمجموعات القديمة . واحتفظت السماء بصفاتها الا من سحابة عارضة بين حين وحين .. ولابد أننى هومت بضع مرات ، حتى اذا بدأت يقظتى تتداعى ظهر فى الافق الشرقى شىء أشبه بانعكاس نار لاأون لها . وعلى الاثر ظهر القمر كما يبدو فى أخريات دورته شاحب الضياء ...

« ولم يلبث القمر الا قليلا ، ثم أخذت تباشير السحر تغير عليه وتغمره بنور باهت فى أول الامر ، لم يلبث أن اصطبغ بلون أرجوانى دافىء ..

«ولم يظهر لنا «المورلوك» ولم ألمح أثرا فوق التل تلك الليلة .. وبطلوع النهار ساورنى الريب فى مخاوفى ، ووقفت أتمطى فوجدت احدى قدمى متورمة قليلا عند كاحلى ، وكعبى يؤلمنى . فجلست مرة أخرى وخلعت الحذاءين وألقيت بهما بعيدا . ثم أيقظت « وينا » ودخلنا معا الى جوف الغابة ، فبدت فى ضوء النهار خضراء يانعة تشرح الصدر .. وقطفنا من شجرها ثمارا وفاكهة اتخذنا منها افطارا شهيا . والتقينا فى جنباتها بعدد من الاقوام الصغار يضحكون ويرقصون فى ضوء الشمس ، كأنما لم يوجد فى الدنيا شىء اسمه الليل يرهبهم ويفزعهم ومرة أخرى خطر لى ذلك اللحم الذى رأيته على موائد « المورلوك » وداخلنى اليقين من حقيقته ، وشعرت فى أعماق فؤادى بالشفقة على ذلك النسل الواهن الخارج من صلب بشريتنا ...

« ولمع فى ذهنى أن مواردغذاء «المورلوك» قد نضبت منذ زمن طويل .. وربما عاشوا أعواما على لحم الجرذان

وما الى ذلك من الهوام . ويظهر أن نفور الجنس البشرى من اللحم الآدمى ليس نفورا غريزيا عميق الجــذور ، فانحدرت تلك السلالة فى طعامها الى مستوى ترفعت عنه القردة . ومما لاشك فيه أن أولئك « المورلوك » أبعد عن صفاتنا البشرية من أجدادنا القدامى سكان الكهوف أكلة لحوم البشر الذين عاشوا فى هذه البلاد قبل أربعة آلاف سـنة ...

« فاذا أضفنا الى هذا ، أن الذكاء الراقى الذى يبغض الينا أكل لحم بنى جنسنا قد تلاشى ، لقدرنا ان أولئـك « المورلوك » لم يشعروا برادع من أنفسم وهم يمـدون أيديهم الى بنى عمومتهم من « الايلوى » ليتخذوا منهم غـذاء حيوانيا ...

« والايلوى » بهذا الوضع هم قطعان ماشية يسمنها « المـورلوك » فى مراعى الارض ومروجهــا الخضراء ، ويقتنصون منها كلما احتاجوا الى طعام . ولعلهم يرعونهم ويشرفون على تكثيرهــم كما نشرف نحن عـلى تربية الدواجن وقطعان الثيران ! ..

« هذا كله يدور فى رأسى و « وينا » تتراقص فى قمة النشوة وهى تجرى بجانبى ! ..

« وشرعت احمى نفسى من سيطرة الفـزع الذى بدأ يخيم على تفكيرى .. وعللت النفس بأن هـذا الانحدار الشديد الذى أصــاب البشرية انما هو عقوبة طبيعية للانانية الحمقاء التى انغمس فيها جنسنا . فقد رضى الانسان لنفسه أن يعيش مخلدا للراحة والترف عـلى ثمرات كدح اخوته فى البشرية .. واتخذ شـعارا له أن الغاية تبرر الوسيلة ، وان الضرورات تبيح المحظـورات

فكان من الحق والعدل أن ينقلب سلاحه ضده .. وان يذبح ويؤكل باسم هذه الضرورة عينها التى بررت له الاسترقاق والاستغلال والاستعباد .. !

« وحاولت أن أحمل نفسي على شيء من الازدراء لتلك السلالة الارستقراطية المنحلة ، ولكنى لم أجد الى ذلك الاحساس سبيلا ! فمهما بلغ من الاسفاف العقلى لدى اولئك « الايلوى » ، فلم تزل لهم الصورة البشرية الواضحة .. فلا بد أن أشعر نحوهم بالعطف والرقة ، ومن الحتم أن اشاركهم آلامهم ومخاوفهم ..

« وكانت لدى فكرة غامضة جدا عن الخطة التى سأنتهجها مستقبلا .. وكانت غايتى الاولى أن اجد كما ذكرت ملاذا أمينا ، ثم احاول أن أتخذ من المعدن او الحجارة اسلحة استعين بها على الدفاع . وهذه الغاية الاولى لامناص من تحقيقها أولا وعلى وجه السرعة . ثم بعد ذلك يستحسن أن أحصل على وسيلة أوقد بها شعلة من النار اتكون تحت يدى ، فقد علمت أنه ما من شيء أفعل من تأثير النار فى أولئك « المورلوك » .. !

« وكانت غايتى البعيدة ، على كلّ حال ، ان اصل الى وسيلة أقتحم بها الابواب البرونزية فى قاعدة تمثال أبى الهول ، لانى كنت واثقا من عثورى على آلة الزمن داخل القاعدة لو استطعت ان افتح الابواب وادخل الى هناك وفى يدى شعلة مضيئة . ومتى حصلت على آلتى فلن أتردد فى الفرار ...

« ولا اكتمكم انى كنت انوى أن آتى الى زمننا الحاضر بالصغيرة « وينا » فوق كتفى ، وعلى هذه النية استأنفت السير نحو قصر الخزف الاخضر ...

منحف !

« وقرب الظهر وصلنا أنا و « وينا » الى قصر الخزف الاخضر ، فوجدته مهجورا مهملا وقد امتدت اليه يد الخراب تحيله أنقاضا واطلالا . ولم يبق من الالواح الزجاجية فى نوافذه الا بقايا متناثرة أكثرها مهشم والواجهة الخضراء تساقطت منها مساحات كبيرة من الخزف ، فتكشف عن هيكل معدنى متآكل ..

« والقصر قائم على ارتفاع ضخم فوق أرض معشبة ، تنتهى من جهة الشرق الى حافة تل .. أظنها كانت فيما مضى شاطئا صخريا ثم جف ماء البحر أو لعله تحول عن تلك البقعة ، وكان هذا الخاطر سببا فى اتجاه تفكيرى الى البحر وما فيه من أحياء مائية وماذا عسى أن يكون قد حدث لتلك الاحياء من التغير والتطور كفاء ماحدث من التغير الخطير للأحياء البرية والسلالة البشرية ..

« وبصعوبة رددت ذهنى عن الاسترسال فى هذا التفكير ، لاشغله بقصر الخزف الاخضر الشاهق المتداعى الاركان . ورحت أفحص مادة البناء القائم ، واقلب قطعا من انقاضه المتناثرة .. فصح عندى ان هذه المادة من الخزف . وعلى طوال الواجهة القائمة ، رأيت كتابة بحروف غير معروفة لى . ولفرط حماقتى سبق الى ظنى أن « وينا » ربما استطاعت أن تقرأ لى تلك الكتابة أو تفسرها ، ثم ثبت لى أن رأسها لم يدخله اى تصور

لمعنى الكتابة أو القراءة . والحقيقة أن « وينا » كانت تبدو لي على حظ من البشرية أكثر من حقيقتها ، وربما كان السبب في هذا الوهم عندي أن عواطفها كانت بشرية جدا ، فخيل الى انها ذات عقل بشري أيضا .. مع أن الانحلال اصاب الجنس كله فتلاشى لديه كل اثر للتعلم كما نعهده .. !

« ولباب القصر مصراعان كبيران مهشمان .. تجاوزناهما فوجدنا شيئا يخالف البهو الكبير المعهود في سائر القصور .. وجدنا دهليزا طويلا جدا يصل اليه النور من نوافذ كثيرة جانبية . وأول نظرة ألقيتها على ماحولي ذكرتني بما رأيت بالمتاحف وكانت الارض مكسوة ببلاط مربع تعلوها طبقة كثيفة جدا من التراب .. وكذلك كانت سائر الاشياء المتباينة الغريبة المنظر مدرجة في أكفان من الغبار الرمادي السميك ، ثم لمحت في وسط الدهليز شيئا غريبا أمعنت فيه النظر فاذا به الجزء الاسفل من هيكل عظمي .. ومن منظر الاقدام المعوجة أدركت انه هيكل حيوان منقرض ، ثم وجدت « الجمجمة » والعظام العليا ملقاة في التراب ...

« وتقدمت في الدهليز قليلا ، فوجدت هيكلا عظميا ضخما آخر لحيوان منقرض من نوع مختلف ، فثبت عندي صواب ما افترضته من ان القصر أقيم ليكون متحفا . واتجهت الى الجدران الجانبية ، فوجدت ماخيل الى أنه رفوف . ولما نفضت الغبار الكثيف ، بدت لعيني الصناديق الزجاجية المعهودة في زماننا هذا . وكان لابد أن هذه الصناديق كانت مفرغة من الهواء محكمة الاغلاق ، لان بعض محتوياتها ظلت محتفظة بكيانها الاصلي في حالة جيدة ..

« وصار من الجلى فى نظرى ، اننا نقف بين اطلال كنسنجتون الجنوبية فى عهد من عهود مستقبلها الزاهر .. وأن قصر الخزف الاخضر هو قسم الحفريات . ولابد أن النماذج والقطاعات كانت مجموعة بالغة الروعة فى حينها ، وان كان فعل الفساد الذى لابد منه على مدى الزمن قد أطاح بـ ٩٩٪ من قيمتها ...

« وهنا وهناك وجدت بقايا متناثرة مبعثرة من نماذج نادرة محطمة أو منظومة فى خيوط على شكل قلائد .. فأدركت أن هذا من أثر عبث أولئك القوم الصغار من « الايلوى » اما الصناديق الزجاجية الثقيلة التى نقلت من مواضعها بقوة وعنف ، فلابد أن الايدى التى عبثت بها هى ايدى « المورلوك »

« وكان المكان ساكنا يخيم عليه صمت القبور ، وبساط من التراب يخنق كل وقع لاقدامنا على الارض .. وكانت « وينا » قد تركتنى أفحص الصناديق والحفريات ، وانصرفت الى اللهو ببعض البقايا المبعثرة .. ثم تركت اللهو وجاءت ووقفت بجانبى ، وتناولت بهدوء شديد يدى بيدها

« ودهشت فى بداية الامر جدا لما رأيته حولى من بقايا هذا الصرح الشامخ الذى يقوم شاهدا على عصر منقرض من عصور العلم وتوقد الذكاء البشرى . واوشكت هذه الدهشة أن تشغلنى عن التفكير فيما يمكن أن يستخدم فيه هذا الصرح ، بل أوشكت مسألة آلة الزمن نفسها أن تغيب عن ذهنى فترة من الوقت .. فاذا نظرنا الى حجم ذلك البناء الضخم ، وجدنا أن قصر الخزف الاخضر اكبر من ان يكون مجرد متحف للحفريات .. فلعله اقيم ليكون

متحفا تاريخيا ، بل لعله كان أيضا دارا للكتب ..

« ورأقنى هذا الفرض الاخير .. لاننى فى تلك الظروف على الاقل كنت مشوقا غاية الشوق بالاطلاع على كتب صدرت بعد زمننا بقرون .. فلا شك انها اطرف وأجدى على المعرفة من منظر كل تلك الحفائر المتحللة !

« وعلى هذا الاساس رحت استكشف اقساما أخرى من البناء الكبير .. فعثرت على دهليز آخر قصير يتجه اتجاها عموديا بالنسبة للدهليز الاصلى ..

« ويبدو ان هذا الدهليز الصغير كان مخصصا للمعادن . وما أن وقع نظرى على كتلة من الكبريت حتى انصرف تفكيرى فى الحال الى البارود . وعبثا فتشت عن ملح البارود ، بل انى لم اعثر فى ذلك المتحف على اثر للنترات من أى نوع .. ولابد أنها اختفت من الوجود منذ عصور بعيدة ...

« بيد أن الكبريت ظل مستوليا على تفكيرى ، وقاد ذهنى الى ضروب من الخواطر .. بحيث لم تظفر سائر محتويات هذا الدهليز رغم قيمتها العلمية واحتفاظها بكيانها بشىء كثير من اهتمامى .. فأنا لست متخصصا فى علم المناجم ، ولذا وجهت خطاى الى جناح من القصر ثقلت عليه وطأة القدم ، وهو مواز للدهليز الاول ..

« ويظهر أن هذا الجانب كان مخصصا للتاريخ الطبيعى ، إلا أن محتوياته جميعا طمست يد العفاء معالمها .. فلم تبق الا اثار طفيفة غامضة مما كان يوما ما حيوانات محنطة أو نماذج لكائنات حية فى حقاق من البللور كانت مملوءة فى زمن من الازمان بالكحول !

« وقد ساءنى ما أصاب هذا القسم ايما اساءة ، لانه كان يسرنى ان اقف على مراحل التكيف المتتابعة فى الكائنات الحية على مر العصور ..

« وانتقلنا بعد ذلك الى بهو ضخم مترامي الارجاء ، ولكنه سيىء الاضاءة جدا .. وارضيته تنحدر الى اسفل انحدارا يسيرا ابتداء من الطرف الذى دخلت منه هذا البهو .. وكانت تتدلى من السقف على مسافات متساوية كرات بيضاء ومعظمها مهشم ، مما أوحى الى بأن ذلك الموضع كان مضاء فيما مضى اضاءة جيدة بوسائل صناعية ...

« وشعرت اننى فى هذا الموضع لست غريبا كل الغربة ، فعلى الجانبين من ذلك البهو الضخم كتلة ضخمة من الآلات الكبيرة ، وجميعها قد تآكل الى حد كبير ، وفريق منها تحطم أو تداعى ولكن طائفة منها بقيت قائمة لم ينقص منها شيء ...

« وأنتم تعرفون شدة تعلقى بفنون الآلات وأسرار عملها .. ولذا ساورنى ميل شديد للتلكؤ والتسكع ، لا على سبيل الكسل أو الفضول الاجوف بل عسى أن يتكشف لى شيء من سرها . فمعظمها لا ينبىء مظهره عن الغرض منه .. وخيل الى اننى الآن استطعت أن أعرف بعض أسرار تلك الآلات ، لاجتمع فى يدى سلطان لا يستهان به ، ربما نفعنى أعظم النفع فى كفاحى ضد « المورلوك » ..

« وعلى حين غرة التصقت « وينا » بجانبى . وكان ذلك منها حركة مفاجئة جعلتنى أجفل .. ولولا حركتها تلك لكنت حريا أكبر الظن الا افطن الى الانحدار الهين

الذى فى أرض القاعة . وربما كانت الارض غير منحدرة أساسا ، وانما جاء الانحدار من تشييد ذلك المتحف على جانب تل مثلا ..

« وعلى كل حال كان المدخل الذى نفذت منه مرتفعا فوق سطح الارض . وينفذ اليه ضوء قليـل من كوات صغيرة قليلة ضيقة .. فلما تقدمنـا فى البهو قليلا ، طغى سطح الارض على مواضع الكوات وصـار المكان أشبه بالجب لا ينفذ اليه الضوء الا من قرب السـقف المرتفع ..

« وتقدمت ببطء شديد ، وأنا فى عجب من أمر هذه الآلات الغريبة . واستغرق هذا العجب كل اهتمـامى ، فلم أفطن الى تناقص الضوء تناقصا تدريجيا .. الى أن نبهنى التصاق « وينا » بى من اسـتغراقى الذهنى ، وعندئذ تبينت أن القاعة يغوص سائرها فى ظلمة دامسة

« وترددت برهة وأنا أنظر فيمـا حولى ، فلاحظت أن التراب صار أقل غزارة فى هذا الموضع ، وأن سطحه ليس فيه استواء كذى قبل.. والقيت بنظرةالى الامام نحو الجانب المظلم ، فخيل الى أن سـطح التراب الذى يغطى وجه الارض تتناثر عليه أقدام صغيرة ضـيقة . فخامرنى على الفور الاحساس بوجـود « المورلوك » عن كثب منى .. وشعرت أننى أبدد وقتى فى فحص تلك الآلات فحصا فنيا . وتذكرت أننا أوغلنا فى فترة مابعد الظهر ، فلم يتيسر لى بعد ان أدبر لنفسى سـلاحـا أو وسيلة لاشعال النار كى أخيف بها اولئك « المورلوك »

المعركة

« وفى هـــذه اللحظة ، سمعت من جوف الظلام فى الطرف الاقصى للقاعـــة صوت هــدير غريب مختلط بالاصوات التى سمعناها من قبل وأنا فى أعماق البئر .. فتناولت يد « وينا » . ثم برقت فى ذهنى على الفور فكرة فتركتها والتفت الى آلة رأيت لها رافعة على شـــكل قضيب مما يوجد فى أكشاك الاشـــارة المستخدمة فى الخطوط الحديدية ..

« وقبضت على تلك الرافعة بيدى الاثنتين ، وضغطت بكل قوتى على الجهة اليمنى ثم اليسرى . وأخذت « وينا » تهمهم معربة عن قلقها .. ولكن لم تنقض دقيقة حتى كان القضيب الحديدى قد تحطم ، وعدت الى « وينا » وقد صار فى يدى سلاح - فيه الكفاية ـــ وما فوق الكفاية ـــ لتحطيم جماجم « المورلوك » عند حدوث اللقاء المنتظر ..

« ولا أكتمكم اننى كنت شديد الاشتياق لقتل واحد من اولئك « المورلوك » أو أكثر من واحد وهذا امر يبدو لكم منافيا للانسانية .. لانه بمثابة الاقدام عـلى قتل واحد من أفراد سلالته وذراريه !

« ولكنى أؤكد لكم أنه كـــان من المستحيل على أن اشعر فى تلك المخلوقات بأى اثر للآدمية .. ولـــذا لـــم يمنعنى من شفاء غليلى بالدخول وسط الظـــلام وقتل

أولئك الوحوش الذين أسمع أصواتهم الا كراهتى لمفارقة « وينا » وحدها واقتناعى انى لورويت ظمئى لقتلهم فانهم قد يحطمون آلة الزمن ..

وانطلقت خارجا من تلك القاعة والقضيب الحديدى فى احدى يدى و « وينا » فى اليد الاخرى .. ودخلنا قاعة اخرى ارحب من الاولى ، ذكرتنى لاول وهلة بالكنائس العسكرية التى تكثر فيها الاعلام والرايات

« وكانت تلك الخرق الداكنة التى تتدلى من الجانبين عبارة عن البقايا المتحللة للكتب والاسفار ، وقد أتت يد الزمن على كل أثر فيها للطباعة . ولو كنت من رجال الادب والشعر لانشأت قصيدة موضوعها تفاهة كل لون من ألوان الطموح الادبى أمام سلطان الفناء ..!

« أما وأنا لست الا رجل علم ؟ فماهزنى فى ذلك التحلل هو ضياع الجهود الضخمه التى تمثلها هذه الملايين من الاوراق المتحللة .. ولا اكتمكم أن ذهنى انصرف فى تلك اللحظة على الخصوص الى مذكراتى العلمية فى الفيزياء والبصريات ...

« وصعدنا بعد ذلك سلما عريضا ، أفضى بنا الى ماكان يوما ماقسما للكيمياء الصناعية .. فخامرنى الامل الكبير فى العثور على أشياء نافعة . وكان هذا القسم بحالة جيدة اللهم الا فى الموضع الذى انهار سقفه فى الناحية الاخرى من القاعة ..

« واتجهت بلهفة الى جميع الحقاق التى لم تتحطم .. والخيرا عثرت فى حق زجاجى مفرغ من الهواء على صندوق للثقاب . وبلهفة عظيمة جربت الثقاب ،

فوجدته بحالة صالحة للاستعمال تماما ، ولم تصل اليه الرطوبة . والتفت الى « وينا » وصحت بها فى لغتها :

ـ ارقصى !...

« فأنا الآن أملك خير سلاح يدفع عنا غائلة تلك المخلوقات الفظيعة ، ولذا رحت بين اطلال ذلك المتحف المقفر الموحش ، وفوق بساط من التراب نسجته يد الخراب فى مئات الاجيال والاحقاب أرقص رقصة مرتجلة وأنا أصفر لحنا من الالحان المرحة على قدر استطاعتى .. ولا شك أن تلك الرقصة كانت شيئا فطريا لا يخضع لاصول ذلك الفن الرفيع ...

« وانى أعتقد الان أن نجاة ذلك الصندوق من الثقاب من فعل الزمن المتوالى أجيالا لا تعيها الذاكرة ، أمر غاية فى العجب .. وان عثورى عليه كان من حسن طالعى

« ولكننى عثرت ايضا على شىء أغرب من الثقاب ، وهو الكافور .. وكان فى قدر من البللور مختومة ، وقد ظننت فى البداية انها قطعة من شمع البرافين الذى يصلح للاشتعال والاضاءة ...

« وحطمت القدر على هذا الاساس .. فلما وجدت مافى الداخل كافورا ، كدت ألقيه من يدى ساخطا لولا أننى تذكرت أن الكافور قابل للاشتعال ، وأن ضوءه وهاج .. فهو يصلح شمعة ممتازة عند اللزوم ، وعلى هذا الاعتبار وضعت قطعة الكافور فى جيبى

« ولم استطع العثور على أى نوع من المفرقعات ، أو اى وسيلة استعين بها على تحطيم البوابات النحاسية

فى قاعدة تمثال أبى الهول. وهكذا كان القضيب الحديدى الذى بيدى هو أقوى سلاح اتفق لى الحصول عليه ..

« ولكن هذا لم يقلل من عظمة ذلك الرواق ومحتوياته الكيماوية .. وليس فى استطاعتى طبعا ان اقص عليكم بالتفصيل جميع المكتشفات التى وقفت اليها بعد ظهر ذلك اليوم .. فهذا أمر يتطلب مجهوداً كبيرا فى التذكر وترتيب الوقائع وتسلسلها ...

« وأذكر اننى دخلت متحفا طويلا تكدست فيه أنواع للاسلحة وقد علاها الصدأ. وأذكر أيضا اننى ترددت برهة بين القضيب الذى فى يدى وبين بلطة او سيف. ولكنى تذكرت انى لا أعرف كيف استخدم البلطة أو السيف ، وأن القضيب يصلح لاغراض كثيرة ...

« ولم أستطع بطبيعة الحال أن أحمل مع القضيب اداة اخرى ...

« وكانت هناك أيضا أنواع من البنادق والمسدسات.. ومعظمها صار كتلا من الصدأ المتراكم ، ولكن بعضا منها كان من معدن لا يصدأ ، ولكنى لم أجدمعها ذخيرتها.. ويبدو انها تحللت وصارت ترابا بمرور الزمن ..

« ولاحظت أن جانبا من ذلك المتحف متهدم متخرب بخلاف سائر المواضع فيه .. فاعتقدت أن انفجارا ربما حدث فى الذخيرة المخزونة هناك ...

« وفى قاعة منفصلة ، رأيت مجموعة غريبة جدا من التماثيل والاصنام منها الاغريقى والمكسيكى والفينيقى والافريقى وما ينتمى الى جميع شعوب الارض فيما أظن

« ودفعتنى رغبة قوية مجهولة ، فكتبت اسمى فوق

أنف صنم بشع الشكل من أصنام امريكا الجنوبية استأثر لطرافته باهتمامى ...

« وباقتراب المساء ، أخذ الفضول يتضاءل .. وكنت قد جست خلال أبهاء كثيرة ساكنة معظمها متهدم وكثيرا مما فيها صار أكواما من الصدأ والتراب . وأخيرا عثرت فى دهليز منها على نموذج لمنجم من مناجم القصدير

« وفى حق زجاجى مفرغ من الهواء رأيت قالبين من قوالب الديناميت !.. وصحت فى فرح جنونى صيحة أرشميدس :

ــ وجدتها !.. وجدتها !..

« وحطمت الحق الزجاجى واخرجت الديناميت بيد مرتعشة ، ثم تسرب الشك الى نفسى . وانتقيت دهليزا جانبيا صغيرا لاجرى فيه تجربتى .. ولا استطيع ان اعبر لكم عن خيبة املى ، وقد انتظرت خمس دقائق ، ثم عشرا ثم خمس عشرة دقيقة ، دون ان يحدث الانفجار المرتقب ..

« لقد كانت القوالب نماذج مقلدة .. ولولا هذا لاندفعت كالمجنون ونسفت تمثال أبى الهول وأبوابه البرونزية . ولو حدث هذا لكنت قد نسفت أيضا ــ كما اتضح لى فيما بعد ــ كل أملٍ فى استرداد آلة الزمن .!

« واظن اننا انتهينا بعد ذلك الى فناء مكشوف داخل أبنية القصر ، وأرضه مغطاة بالعشب الغزير ، وفيه ثلاث شجرات من أشجار الفاكهة .. وهناك جلسنا واسترحنا وأكلنا من الفاكهة ..

« وقرب الغروب ، بدأت أفكر فى موقفنا .. فها هو الليل يزحف نحونا ويوشك أن يطبق علينا ، وأنا لم أعثر بعد على الملاذ الامين الذى لا تصل اليه يد العدو

« ولـــكنى لم اضطرب لذلك كثـــيرا ، ففى حوزتى الآن شىء لعله خير وسيلة للدفاع ضد « المورلوك » .. الا وهو الثقاب ، وفى جيبى أيضـــا كتلة من الكافور أستخدمها ـ اذا احتجت ـ شعلة متوهجة ..

« وخيل الى أن خير ما أصنعه فى هذا الموقف ، هو أن نقضى الليل فى العـــراء تحت حمـــاية شـــعلة وفى الصـــباح أفكر فى استرداد آلة الزمن ، وأحاول تحطيم الابواب النحاسية بالقضيب الحديدى .. عسى ان يكون هذا مجديا ..



النار

« وفى ظلمة الغسق خرجنـــا من القصر ، والبقايا الاخيرة من أشعة الغروب تلوح فى الافق الغربى •• وفى نيتى عند طلوع النهار أن اتجه بخطى سريعة الى موضع تمثال ابى الهول الابيض لابلغه فى وقت مبكر ، مخترقا تلك الغابة الـــكثيفة التى اعترضت طريقى فى رحلـة القدوم ••

« وتيسيرا لهذه الخطة ، قررت أن أقطع أكبر مسافة ممكنة فى هذا الاصيل قبل أن أعسكر للمبيت فى حماية نيران أشعلها فى الاعشاب الجـــافة وفروع الشـــجر الصغيرة •••

« وتحقيقا لهذه الغاية ، كنت أجمع وأنا منطلق فى طريقى العيدان والاوراق الجافة التى اصادفها ، الى أن تجمع منها ما ملأ ذراعى •• وكان هذا العمل سببا فى الابطاء من سرعة سيرنا عما قدرت من قبل ••

« وفضلا عن هذا كانت « وينا » متعبة ، ولا تنسوا اننى كنت اعانى بصورة خفية من حاجتى إلى النعاس بعد مجهود ذلك اليوم الشاق ••

« وكان الظلام قد خيم تماما قبل وصولنا الى أطراف الغابة •• وعلى الاشجار المتناثرة عند سفح الجبل توقفت « وينا » عن السير ، وأظهرت خوفها الشديد من كتلـة

الظلام الجاثمة أمامها ممثلة فى الغابة الملتفة ..

« ولكن احساسا غامضا بالقلق ، جعلنى أتقدم صاعدا التل على حساب اعصابى وعضلاتى المجهدة .. فأنا لم اذق النوم مدى ليلة ويومين ، لذا كانت حرارتى مرتفعة وحالتى العصبية متوترة ..

« وشعرت بالنوم يطبق على اجفانى .. وشعرت فى الوقت نفسه أن « المورلوك » يتأهبون مع الليل والنوم للاطباق على ..

« وفيما نحن نتردد بين الاقدام والاحجام ، لمحت بين أشباح الاشجار من خلفنا ثلاثة اشـــكال رابضـــة بين الاعشاب الطويلة والشجيرات ، ولم أحس بالطمأنينة لهذا القرب ..

« وكنت قد قدرت في النهار عرض الغابة بمقدار ميل تقريبا .. فلو اننا استطعنا أن نخترقها الى الجانب الآخر، وهو سفح خال من الاشجار تقريبا ، لكان هذا أدعى لامننا وسلامتنا عندما تنام ..

« وخطر لى أننى بفضل الثقاب والكافور ، ربما استطعت أن اشق أمامى طريقا مضيئا وسط الاشجار الكثيفة . وكان من البديهى اننى كى أستخدم الثقـاب وأشـــعله سأحتاج الى يدى كلتيهما ..

« وفى هذه الحالة ، لا بد لى من التخلى عن أخشــاب الوقــود التى جمعتهـــا . وعلى مضض ألقيت حملى على الارض ، ثم خطر لى وأنا واقف أنظر الى تلك الـــكومة بحسرة واسى أننى حرى أن أثير دهشـــة أصـــدقائى « المورلوك » باشعال النار فيها كى يضطربوا ويذعروا..

« وقد تمخضت هذه الحماقة البالغة عن عواقب وخيمة ·· ولكنى في تلك اللحظة لم افكر آلا فى استخدام النيران وسيلة لتغطية انسحابنا ··

« ولست أدرى هل لديكم فكرة عن غرابة منظر النار فى بقعة ليس فيها وجود للبشر ـ كما نعهدهم ـ مع اعتدال المناخ ، وحرارة الشمس فى ذلك الجو ليست لها القوة الكافية للاحراق ·· حتى ولو عكست اشعتها وركزتها بللورات من قطرات الندى كما يحدث أحيانا فى المناطق الاستوائية ، وأما البرق والصواعق فقد تقصف الشجر وتصيبه بالاسوداد والتفحم ، ولكنهما قلما يتسببان فى اشعال حريق على نطاق واسع · والنباتات حين تتعفن وتتحلل ، يصيبها التفحم من جراء حرارة اختمارها ·· بيد أن هذا ايضا قلما يفضى الى ايقاد شعلة ··

« ومن الواضح أن حقبة الانحلال التى أصابت الارض فى ذلك الزمن الموغل فى المستقبل ، أنست السكان كل ذكرى للنار والاشتعال ·· وهذا قد يقرب من أذهانكم مبلغ الغرابة التى اكتنفت منظر الالسنة الحمراء التى ارتفعت فى الجو من كومة الاخشاب الجافة · وقد قرأت هذا العجب البالغ فى سحنة « وينا » ··

« وأول ما خطر لهذه البريئة الساذجة أن تهجم على ألسنة النار لتلهو بها ·· وأعتقد أننى لو لم أمسكها بالقوة ، لالقت بنفسها فى تلك الالسنة الحمراء مفتونة بلونها وحركات تمايلها التى تشبه رقصة من رقصات الباليه ·· !

« حملتها بين ذراعى بالقوة ، ولم أبال بمقاومتها العنيفة حين رآتنى أتقدم بها لاوغل بين أشجار الغابة ·· وظل

وهج النار يضيء لى الطريق فترة وجيزة ، وبعد قليل نظرت الى الوراء فاستطعت أن أرى من خلال الاشجار شيئا لم يخطر ببالي من قبل •• فان النار التى اشعلتها قد سرت من الكومة آلى الاعشاب الطويلة آلنامية فوق سفح التل ، ودبت فى الشجيرات المتناثرة الجافة النامية وسط تلك الاعشاب ، حتى صنعت آلنار قوسا يزداد اتساعها وتمعن فى زحفها نحو قمة التل ••

« وتحت ضغط تعبى وتوتر أعصابى ، قابلت الامر بالضحك كأننى غلام أبهج قلبه نجاح لعبته •• وانطلقت اشق الطريق لنفسى فى ظلام الاشجار من أمامى ، وكان الظلام حالكا جدا مما جعل « وينا » تتعلق برقبتى تعلقا شديدا • وتمكنت عيناى بعد أن ألفت الظلام من تمييز ما أمامى ، بحيث كنت أفلح فى تحاشى آلجذور التى تعترض خطواتى والفروع التى تتشابك امام وجهى • أما من فوق رأسى ، فكانت الظلمة تامة الا فى مواضع قليلة متناثرة تبدو منها زرقة السماء ••

« ولم اشعل شيئا من ثقابى لان يدى كلتيهما كانتا مشغولتين •• ففوق ذراعى الايسر كنت احمل صغيرتى العزيزة « وينا » وفى يدى اليمنى كنت احمل سلاحى الوحيد ، وهو ذلك القضيب من آلحديد الذى انتزعته من آلة قصر الخزف الاخضر ••

« وظللت مسافة غير قصيرة لا يطرق سمعى شىء سوى صوت تحطيم الاغصان والاوراق تحت وطأة قدمى ، وحفيف الريح بين أغصان آلشجر من فوق رأسى ، وتردد أنفاسى فى صدرى ، ودفقات الدماء مع خفقات العروق فى عارضى •• ثم خيل الى أننى أسمع وسوسة غريبة

عن كثب منى ، فزدت من سرعة سيرى وحثثت الخطى وقد ازداد تجهم وجهى ..

« وبدا ما حسبته ظنا يتجسد فى سمعى .. فها هى الوسوسة تزداد ، ووقع الاقدام يتضح .. واذا بى أسمع تلك الاصوات المهمهمة التى سمعتها من قبل عند رحلتى فى باطن الارض من سكان ذلك العالم السفلى ، فلم يبق عندى من شك فى أن بضعة من « المورلوك » بين اشجار الغابة ، وأنهم يدبرون خطة للاطباق على ..

« وبعد دقيقة شعرت بشىء يجذب ذيل سترتى من الخلف .. ثم تحسست ذراعى يد غريبة .. وارتجفت « وينا » فوق صدرى ارتجافة شديدة ، ثم لاذت بكتفى وجمدت حركتها تمام الجمود ..

« وادركت أن الوقت قد حان لاشعال عود ثقاب ، فلم يعد من ذلك مفر .. ولكننى لكى أخرج الثقاب من جيبى يجب أن أضع « وينا » على الارض . فوضعتها بين قدمى ، وفى حين كانت يدى تنقب فى جيبى عن الثقاب نشبت معركة فى الظلام عند مستوى ركبتى ..

« لزمت « وينا » فى تلك المعركة جانب الصمت التام ، أما « المورلوك » فكانوا يهمهمون باصواتهم المعتادة .. وكانت أيد صغيرة من أيديهم الناعمة تتحسس فى الوقت نفسه سترتى وظهرى وقفاى ، ثم فجأة اشعلت عود ثقاب ، ورفعته أمام وجهى فرأيت ظهور « المورلوك » البيضاء وهى تتوارى لائذة بالفرار بين الاشجار ..

« وبسرعة أخرجت كتلة الكافور من جيبى ، وشرعت أعدها للاشتعال من عود الثقاب .. ثم القيت على « وينا » نظرة فاذا بها راقدة على الارض متشبثة بقدمى ، وليس

بها حراك ، ووجهها الى الارض •• فانتابنى الفزع عليها وانحنيت فوقها أتحسسها فلم اكد أتبين فيها نفسا يتردد ••

« فاشعلت كتلة الكافور على عجل ، ثم القيتها على الارض فتصاعدت منها ألسنة متوهجة طردت أشباح الظلام وفلول « « المورلوك » وركعت على الارض فرفعت « وينا » وخيل الى عندئذ أن الغابة من خلفى كانت تزخر بهمهمة جيش كبير ! ••

« ويبدو أنها كانت مغشيا عليها ، فوضعتها بعناية ورفق فوق كتفى •• ثم نهضت لاستأنف طريقى ، وعندئذ فطنت الى حقيقة مروعة : فانشغالى باشعال الثقاب ثم ب « وينا » جعلنى أتحرك حول نفسى بضع مرات ، فاذا بى الآن لا أدرى أطلاقا أين كانت وجهتى التى أسير فيها ! ••



الكابوس

« وليس ببعيد اطلاقا أن أجد نفسى متجها الى حيث يقوم قصر الخزف الاخضر ، فأعود من حيث أتيت .. وتصبب جسمى بعرق بارد ، وكان ينبغى أن أفكر فى مخرج من هذا المأزق بسرعة فائقة ، وخطر لى أن اجمع أوراقا واغصانا ، وأشعل نارا نقضى فى حمايتها ما بقى من الليل حيث نحن ..

« ووضعت « وينا » على الارض ، وكانت لم تزل فى حالة اغماء .. وبسرعة فائقة رحت اجمع العيدان والاوراق الجافة ، ولم يفتنى أن أنظر هنا وهناك ، فى كل مكان بين الشجر من حولى .. آلى عيون « المورلوك » المستديرة التى تتوقد كالجمر أو حبات الياقوت ..

« وما أن تجمعت لى كومة من الوقود ، حتى اتت النار على ما تبقى من كتلة الكافور .. فأشعلت على الفور عود ثقاب . وما أن توهج نوره حتى رأيت اثنين من « المورلوك » كانا بسبيل الانقضاض على « وينا » وقد افزعهما الضوء ففرا هاربين ..

« وبلغ من عمى أحدهما ، أنه اتجه فى فراره نحوى .. وسمعت صوت تحطم عظامه تحت اللكمة العنيفة التى أصابته من قبضة يدى .. وترنح فى مشيته بعدها قليلا ، ثم سقط على الارض بين الاشجار ..

« وأخرجت من جيبى قطعة أخرى من الكافور،ورحت على ضوئها استكمل كومة الوقود .. ولاحظت أن الكثير من فروع الشجر من فوقى كانت جافة ، وتذكرت أن المطر لم يسقط منذ قدومى على متن آلة الزمن ، أى منذ أسبوع تقريبا ..

« وسهل هذا على العمل ، لاننى لم أعد بحاجة الى الانحناء فوق الارض لاجمع المتساقط من الورق والعيدان .. بل كنت أقفز واستنزل مجموعات من الاغصان الجافة ، وسرعان ما تجمع عندى رصيد كبير من الوقود الجاف الذى فيه بقية من الخضرة ، واشعلت نارا كثيرة الدخان أتاحت لى اقتصاد الكثير من الكافور ..

« وبعد ذلك التفت الى حيث رقدت «وينا» وبجوارها القضيب الحديدى ، وبذلت كل مافى وسعى لانعاشها ، ولكنها كانت شبه ميتة .. ولم أستطع أن أتبين أنفاسها، وكان دخان النار قد بدأ يملأ الجو ، وقدرت أن النار سوف لا تحتاج الى اذكاء لمدة ساعة أخرى على الاقل . وعلى هذا الاساس سمحت لنفسى أن أستجيب لرغبتى الملحة فى الجلوس لأظفر ببعض الراحة ..

« وجلست قرب النار ، وأخذت تمـــلأ سمعى تلك الهمهمات .. وكل ما اذكره بعد ذلك أننى كنت احملق حولى ورأسى يهتز ، ولكن الظلام كان شديداً ..

« ولابد أنى غفوت ، فلم أتنبه الا وأيدى « المورلوك» الصغيرة الناعمة على أعضاء جسمى .. فنفضت أصابعهم بسرعة عنى ، وادخلت يدى فى جيبى لاستخرج صندوق الثقاب .. فاذا به غير موجود ، والتحموا بى مرة أخرى فى الظلام ..

« وأدركت ما حدث .. فان النوم قد استفرقنى ، فلما خمدت النار هجموا على . وكانت رائحة الدخان تملأ خياشيمي مختلطة برائحة خشب محترق ، وعشرات الايدى آخذة برقبتى وشعرى وذراعى لتلقى بى الى الارض ..

« وكان فظيعا جدا أن أشعر بكل تلك المخلوقات البشعة متكأكئة على فى الظلام ، حتى كأننى ذبابة تتخبط بين خيوط عنكبوت أسطورى ..

« وغلبت على أمرى فهويت على الارض ، وشعرت بأسنان صغيرة تنشب فى عنقى .. فتدحرجت على الارض بسرعة ، وعثرت يدى فى الظلام بالقضيب الحديدى .. فبعث ذلك فى أوصالى تيارا جديدا من القوة ..

« واستجمعت شتات عزيمتى الى أن تمكنت من الوقوف فى وجه مقاومة عنيفة ، وأخذت أنفض تلك الجرذان البشرية عنى .. وأمسكت بالقضيب الحديدى من منتصفه ، ثم أخذت أضرب فى المستوى الذى قدرته لوجوه « المورلوك » وجماجمهم . وسمعت صوت تهشم العظام وتهتك اللحم تحت ضرباتى ، وسرعان ما انفضوا عنى ..

« وفى اللحظة التالية اشتد شعورى باليأس من نتيجة المعركة .. ووضح عندى انني و « وينا » مقضى علينا لا محالة . ولكنى آليت على نفسى أن أستأدى أولئك « المورلوك » ثمن اللحم الذى سيأكلونه غاليا .. واسندت ظهرى الى شجرة ، ورحت أطوح القضيب الحديدى أمامى ..

« وامتلأت الغابة كلها بصيحات .. ومرت دقيقة ، ثم

خيل الى أن ضجة أصواتهم قد زادت .. وأن حركتهم قد اشتدت ، ولكن من غير أن يدنو أحدهم منى وانا واقف فى موضعى أحملق فى الظلام ..

« وبدأ الامل يداعبنى ..فماذا لو أن أولئك «المورلوك» قد شعروا بذلك الاحساس البشرى الذى انقرض ، الا وهو الخوف ؟ ..

« وفى أعقاب بارقة ذلك الامل ، لاحت لعينى بوارق محسوسة من النور .. واستطعت أن أرى جثث ثلاثة من «المورلوك» صرعى على الارض أمامى ، ثم ازدادالضوء ورأيت عشرات وعشرات من فلول « المورلوك » وهم يولون الادبار .. وعشرات غيرهم يأتون سراعا من خلفى لتواريهم الاشجار من أمامى فى سيل لا ينقطع ..

« وأدهشنى أن أجد ظهور أولئك « المورلوك » حمراء لا بيضاء ، ووسط هذا الذهول الذى استولى على رأيت شرارة حمراء تطير فى الجو بين فروع الاشجارثم تختفى..

« عندئذ أدركت سر رائحة الخشب المحترق التى كانت تملأ خياشيمى ، وسر تلك الهمهمة التى تحولت الآن الى هدير ، وسر ذلك الضياء ، بل وسر لياذ « المورلوك » بالفرار ..

« فلما التفت ورائى ، رأيت من خلال أعمدة الاشجار المتراصة ألسنة اللهب المشتعل فى أطراف الغابة وهى تحترق .. وأدركت أن هذه هى النار التى أوقدتها قبل أن أدخل الغابة ، وكأنها جاءت تتعقبنى .. !

« ونظرت الى الموضع الذى كانت ترقد فيه « وينا » فلم أجد لها أثرا .. ولكن الحريق ومنظر فلول«المورلوك» الهاربة وصراخهم لم تدع لى فرصة كبيرة للتفكير ..

« وكان أهول من هذا كله قرقعة النار وهى تشب فى كل شجرة جديدة ، فأخذت القضيب الحديدى فى يدى ثم انطلقت فى أعقاب « المورلوك » ..

« وكان سباقا رهيبا .. ففى احدى مراحله اندلعت النار بسرعة الى اليسار .. واخذت اجرى لابتعد عن حصار النار ، وأخيرا وجدت نفسى فى مساحة خالية من الشجر . وعندئذ أبصرت أحد « المورلوك » قادما نحوى وهو يتخبط ، واجتازنى ثم ألقى بنفسه فى النار القاء !.

« ورأيت على كتف التل عند الغابة عن كثب من تلك الساحة نحو اربعين من « المورلوك » اعماهم الضوء ، وأطاشت صوابهم الحرارة الشديدة .. فراحوايتخبطون بعضهم فى البعض الآخر وهم يحاولون النجاة ..

« فلم أدرك لاول وهلة أنهم فى حالة عمى .. فانهلت عليهم بالقضيب الحديدى بكل وحشية ، أو على الاصح مدفوعا بجنون الفزع منهم ، فقتلت منهم بضعة وأصبت عددا كبيرا باصابات بالغة

« ثم فطنت الى ما هم فيه من عجز بسبب الضوء والحرارة .. نبهتنى الى ذلك أنات المختبئين منهم بأشجار العوسج الشوكية . وبعد فترة تضاءلت ألسنة النار ، فخشيت أن يعود البصر الى تلك المخلوقات فتهاجمنى

« وبدأت أفكر فى مهاجمتهم قبل خمود النار تماما لاقتل منهم أكبر عدد ممكن .. ولكن تأجج النار مرة أخرى أعفانى من تلك العملية . ورحت أجوب أطراف الغابة من الخارج بحثا عن أثر ينم عن « وينا » ولكنى بؤت بالخذلان ..

« واخيرا جلست على قمة التل ، وجعلت أنظر الى

تلك المخلوقات العمياء وهى تغدو وتروح مترنحـــــــة متخبطة وأصواتها المبهمة ترتفع .. أو أنظر الى السماء ذات النجوم .

« وقد اعترضت نظرى الى السماء سحائب من الدخان الاسود ، لم تعرفها أجواء ذلك العصر من عشرات الاجيال . وخامرنى الاحساس بأننى عشت فى تلك الليلة تحت سلطان كابوس طويل ثقيل ..

« وجعلت أضرب الارض بقدمى ، واضرب وجهى وأقرص فخذى واصرخ كى أوقظ نفسى من هذا الســـــبات الفظيع .. !

« وأخيرا بدأت أضواء الفجر الاولى تطـــل من الافق الشرقى ، فانتهزت الفرصـــة وقمت لابحث مرة أخرى ـ لعلها الاخيرة ـ عن « وينا » . وكان من الواضح أن قانصيها اضطروا الى التخلى عن جسدها الصغير وسط الغابة المحترقة

« ولست أدرى كيف أصف لكم شعورى بالارتياح لان النار قد جنبتها ذلك المصير الفظيع الذى كان ينتظرها على أنياب « المورلوك » .. وكان هذا التفكير فى حد ذاته كافيا لاغرائى بالقيام بمذبحة انتقامية ، لولا أننى فكرت فيما ينتظرنى من مهام ذات خطر ..



غشاوة خادعة

« وفى ضوء الفجر ، من وسط تلك الرحبة القائمـــة على ذروة التل ، استطعت أن أرى بوضوح موضع قصر الخزف الاخضر .. وبناء على تحديد موقعى حـــددت الاتجاه فيه لاصل الى تمثال أبى الهول ، حيث تـكمن آلة الزمن داخل قاعدته ..

« وبدأت السير ببطء نحو غايتى ، لان الاعيــاء كان شديدا ، ولان فقد « وينا » بهذه الصورة كان قد نال من معنوياتى .. فهذه الصديقة كانت المؤنس الوحيد لى .. وفقدانها كارثة لا تكاد تحتمل .. !

« وبينما أنا فى طريقى وضعت يدى فى جيب بنطلونى على غير هدى .. ووجدت هناك بضعة اعواد من الثقاب لابد انها تسربت من الصندوق قبل ان يستولى « المورلوك» عليه . وفرحت بها كثيرا لانها البقية الباقية من ســلاح حضارى ، لولاه لمــا تمكنت من النجاة من شر تلك الجيوش المتوحشة من أكلة لحوم البشر ..

« وهأنذا الآن ادرك ما وراء تلك الغشـــاوة البراقة من جمال ذلك العالم العلوى وجمال أهله اللطاف الصغار . ما أشد العناية التى يلقونهـــــا ، وما الطف الايام التى يقضونها ! .. انها شبيهـــة فى كل شىء ، بأيام المراح فى المراعى التى ينعم بها قطعان الماشيـــة . وهم كالماشية لا يعرفون ان لهم عدوا يترصدهم ، وأن نيته القاتمة تكمن

وراء رعاية ساهرة .. وكالماشـية أيضا ينتظرها مصير هو نصل السكين وصحاف الطعام أو الاسنان التي تنهش بغير صحفة أو سكين .. !

« وفي نحو الساعة الثامنة او التاسعة » وصلت الى البقعة التي رأيت منها العالم أمسية وصولي .. وفكرت فيما جال بذهني في تلك الامسية ، ولم استطع ان أمنع نفسي من ضحكات السخرية بما كان مستوليا على من الثقة ..

« وهأنذا اشرف على ذلك المنظر الجميل بعينـــه .. لم يتغير فيه شيء من نضار خضرته والتفاف نباته ،وعلى مرمى البصر قصوره البواذخ واطلاله وابراجه الشوامخ.. والنهر الفضى لم يزل كالعهد به صافيا رقراقا ينســاب بين ضفتين تزهوان بنباتهما الزاكى ..

« والاقوام الصغار « ايلوى » يخطرون ويطفرون بين الاشـجار البواسق ، والازهار البواثق ، رافلين في أبهى حلل الوشى .. وفريق منهم يستحم في ذلك النهر الذى انقذت فيه حياة « وينا » .. وقد احسست لتذكارهاوخزة ألم وجيعة ، وعن بعد تناثرت تلك القباب النحاسية .. ومن تحتها المسالك المؤدية الى العالم السفلى ..

« وأحزنني أن ينتهي الى هذا المصير حلمنا الضـخم بازدهار العقل البشرى .. فالعقـــل البشرى قد انتهى بالانتحار » خنق نفسه بالاستغراق في الراحة والترف في مجتمع متوازن مكفول الحاجات مأمون الفـوائل منتظم كالساعة المضبوطة ، فكانت نهاية البشر فيما سعوا الى تحقيقه من آمال مزوقة .. وكانت وفاة الذكاء اشبه بمن كوم الازهار مبالغة في التأنق فخنقت انفاسه وهو نائم !

« لقد استطاع الانسان في فترة من مراحل تاريخـه

المستقبل أن يؤمن الحياة وضروراتها تأمينا مطلقا . فاطمأن الغنى على ثرائه وترفه ، واطمأن الكادح على حياته وعمله . واختفت فى تلك المرحلة بلا ريب مشـــكلة التعطل ، بل لم تعد هناك مشكلة اجتماعية بغير حل .. وأعقبت ذلك فترة هدوء ، أخلد فيهـــا البشر الى مناعم حيـــاتهم المطمئنة ...

« ان للطبيعة قانونا ، كثيرا ما نغفله .. وهو أن ازدهار الذكاء ثمرة الخطر والقلق والكفاح فى ســـبيل البقاء والامان .. فالحيوان الذى يعيش فى تكييف كامل مستقر مع بيئته ، لا يعدو أن يكون آلة حيـــــة خاملة الذكاء والابتكار ..

« فالطبيعة لا تلجأ الى الذكاء الا عنـــدما لا تغنى فى مواجهة الموقف العادة المألوفة والغريزة بطرائقها المعروفة .. ولذا فلا ذكاء حيث لا تغير ..

« ويختلف نصيب الحيوانات من الذكاء بقدر ماتحتاج الى مواجهته من صنوف الاحتياجات وأنواع المخـــاطر التى تطرأ على غير انتظـــار ، والمواقف ذات الطـــرافة والمفاجأة ..

« وها أنذا الآن أرى أهل العالم العلوى قد انحدروا الى هذا الوهن وتلك الرخاوة بناء على ذلك القانون .. وبناء عليه أيضا ، انحدر أهل العالم السفلى حتى صاروا أشبه بالآلات ..

« بيد أنهم بسبب ممارستهم للصـــناعة المتطورة فى آليتهم ، احتفظوا بشىء ضئيل من التفكير يتجاوز حدود العادة ..

« ولذا بقيت لهم السعادة والسيطرة على أهل العالم العلوى ، فلما انقرضت الماشية والحيوانات من وجـــه

الارض اتخذوا من « الايلوى » السادة السابقين موردا لطعامهم .. أو هذا على الاقل هو تفسيرى لما رأيته بعينى فى ذلك المستقبل السحيق ، وعساى أن أكون مخطئا ..

« وبجوار ذلك المقعد المصنوع من المعدن الاصفر، تمددت على العشب تحت أشعة الشمس الدافئة .. واستسلمت للنوم أسترد به شيئا من قواى المبددة ..

« ولم أستيقظ الا قبيل الغروب .. فتمطيت وهبطت جانب التل ميمما شطر تمثال أبى الهول الابيض . وفى احدى يدى قضيب الحديد ، وكنت باليد الاخرى أعبث بأعواد الثقاب فى جيبى ..

« وكانت فى انتظارى مفاجأة لم أتوقعها، فحينما اقتربت من قاعدة التمثال وجدت البوابات النحاسية مفتوحة.. وقد هبطت فى جيوب لها داخل الارض ، فوقفت أمام تلك المفاجأة مبهوتا وترددت كثيرا فى الدخول ..

« وكانت أشعة الاصيل تمدنى برؤية واضحة ، فرأيت داخل القاعدة حجرة فى أحد أركانها منصة ، وفوق المنصة آلة الزمن .. وكانت رافعتاها فى جيبى ..

« وكان الاغراء شديدا .. فبعد استعدادى الطويل المضنى لمحاصرة أبى الهول الابيض ، ها أنذا أجد من « المورلوك » تسليما واذعانا .. فألقيت بقضيب الحديد بعيدا ، وانا لا أكاد أخلو من الاسف لان الظروف لم تتح لى أن أستخدمه بما يشفى غليلى ! ..

« وخطر لى خاطر مفاجىء ، وأنا أنحنى لادخل من احدى البوابات المنخفضة .. فأدركت طريقة تفكير أولئك « المورلوك » ، وكنت أضحك بصوت مرتفع سخرية من مكرهم الضحل ..

« وتقدمت بخطى ثابتة نحو آلة الزمن .. فأدهشني أن أجدها قد نظفت وغذيت لوالبها بالزيت ، وأكاد اعتقد أن « المورلوك » فكوا أجزاء منها محاولين الوصول الى سر تركيبها

« وبينما أنا أرقب آلة الزمن بفرح وأفحصها ، حدث ما توقعته .. اذ أغلقت البوابات فجأة ، وانصفقت بصوت مرتفع فوجدت نفسى فى الظلام تماما .. وقد وقعت فى الفخ الذى نصبه لى « المورلوك » أو هكذا خيل اليهم .. فقهقهت ضاحكا !

« وتبينت فى الظلام صوت همهمتهم الضاحكة وهم يتقدمون نحوى .. وبهدوء حاولت أن أشعل عود ثقاب بحكه فى الجدران كى أثبت الرافعتين واختفى بين سمعهم وبصرهم كالشبح ، ولكننى كنت قد أغفلت حقيقة صغيرة .. وهى أن ذلك الثقاب الذى وجدته فى المتحف من النوع الامين الذى لايشتعل الا اذا حككناه فى صندوقه » !

« وفى وسعكم أن تتصوروا مدى ارتباكى ، وكيف تبخر هدوئى فى لمح البصر .. فهاهم أولئك الوحوش عن كثب منى ، وها هو أحدهم يتحسسنى .. فضربته والرافعة فى يدى ، ثم ركبت آلة الزمن ..

« وأحسست بيد توضع على كتفى .. وتلتها يد ناعمة مثلها على رأسى ، وانا منصرف بيدى الى تثبيت الرافعتين فى موضعهما .. ولكن أحدهم استطاع أن يستخلص احدى الرافعتين .. فألهمت أن انطحه فى الظلام برأسى ، فسمعت لجمجمته رنينا .. وأفلتت أصابعه الرافعة ، فكانت تلك المعركة أشد خطرا من معركة الغابة بالامس ..

« واخيرا استقرت الرافعتان فى موضعهما وحركتهما .

وبدأت الايدى تتراجع عنى ، وأخذ الظـلام ينجاب عن عينى .. وسرعان ما وجدت نفسى وسط خليط رمادى يجمع بين الضوء والظلمة على النحو الذى بينته فى رحلة الانطلاق من عصرنا ..

« وقد حدثتكم أيضا من قبل عن الغثيان والاضطراب اللذين يكتنفان السفر فى الزمن .. وفى هذه المرة كان الامر أسوأ من المرة الاولى ، اذ لم اكن مستويا فى جلستى ، بل ركبت حيثما اتفق تحت ضغط الموقف الحرج . وظللت وقتا لا أعرف مداه ، متشبثا بالآلة وهى تدور حـول نفسها وتهتز ولا أدرى أين أتجه ..

« وقاب عنى أن أنظر الى مقاييس السرعة .. فلما ألقيت عليها نظرة ، وجدت مؤشر ألوف السـنين يجرى بسرعة عقرب الثوانى فى ساعاتكم .. موغلا فى المستقبل ، فى مزيد من المستقبل !

« وعندئذ أدركت اننى كان ينبغى أن أحرك الرافعتين فى اتجاه مضاد .. ولكنى أحببت فى الوقت نفسـه أن ألقى ـ قبل تغيير الاتجاه الى الماضى ـ نظـرة على ذلك المستقبل التالى للعصر الذى عشت فيه بين « المورلوك » و « الايلوى » ..

« وأمعنت النظر .. ولكن السرعة الفائقة جعلت تداخل الضياء والظلمة سريعا ، ولم يكن يخفف منـه الا مروق شهاب أو مذنب فى عرض السماء ...

« بيد أننى استطعت أن ألاحظ ان الشمس صـار قرصها اكثر اتساعا واميل الى الاحمـرار .. اما القمر فتلاشى ولم يعد له أثر ، ثم اتضـح ان الارض صارت تدور بوجه واحد حول الشمس دون وجههـا الآخر ، على غرار ما يفعل القمر الآن وهو يدور حول الارض ..

القسم الرابع

العودة إلى الحاضر

نظرة الى المستقبل

« لم أكن اكتفيت بما رأيت من ذلك المستقبل الكونى الموحش .. وبحذر شديد أخذت أعكس اتجاه آلة الزمن عن طريق الرافعتين . وأخذ مؤشر ألوف السنين فى الابطاء الى ان كفت حركته تماما . أما مؤشر الايام فبدأ يظهر بعد ان كانت سرعة دورانه الفائقة قد جعلته خافيا عن نظرى .. ومع ابطاء مؤشر الايام أخذ الشاطىء الموحش يرتسم إمامى . واعتدلت فى مجلسى والقيت نظرة متفرسة على ما حولى ..

« فاذا السماء فى ذلك المستقبل الكونى الذى لايحصيه عدد من السنين قد تغير لونها الازرق ، فالافق الشمالى الشرقى اسود حالك السواد .. تلمع فيه النجوم الشاحبة كأنها الثقوب فى ثوب أسود . أما فوق سمت الرأس فى كبد السماء ، فاللون أحمر قان .. ولا نجوم هناك . وفى الافق الجنوبى الشرقى كان اللون قرمزيا وهاجا ، فهناك ما تبقى من كتلة الشمس الضخمة .. وقد استقرت فى موضعها شديدة الاحمرار ..

« وصخور الشاطىء من حولى لونها أحمر كالح .. ولم آنس أثرا للحياة كما اعهدها سوى نباتات شديدة الخضرة تكسو الجانب الشرقى من كل نتوء فى الارض أو الصخر .. انه ذلك اللون الاخضر الذى يرى فى طحالب الكهوف أو النباتات المتسلقة فى الغابات حيث لا يصل

من الضوء الا أقل القليل ..

« وكانت آلة الزمن مستقرة فوق الشاطىء المنحدر، والبحر يمتد أمامها الى الجنوب الغربى وقد خلت من صفحته الموج .. لانه لم تكن ثمة نسمة واحدة من نسمات الريح ، اللهم الا خفقة كأنفاس النائم بقيت دليلا على أن البحر لم تزل فيه حركة الحياة ..

« واحسست فى راسى صداعا أشبه بوطأة الضغط المرتفع .. ثم لاحظت أن تنفسى صار سريعا للغاية ، فذكرنى ذلك بحالة من يتسلق جبلا عاليا . واستنتجت أن الهواء صار أكثر تخلخلا مما هو الآن بكثير ..

« ومن بعيد فوق قمة ذلك المرتفع ، سمعت صرخة ثاقبة .. ورأيت شيئا أشبه بالفراشة الضخمة البيضاء يحوم فى الهواء ويحلق نحو السماء فى دوائر كبيرة الى أن اختفى بين التلال .. وكان الصوت موحشا ، جعلنى أرتجف واتثبت من موضعى فوق آلة الزمن ..

« والقيت نظرة أخرى حولى .. فتبينت أن كتلة الصخر الحمراء الكالحة القريبة منى أخذت تتحرك ببطء نحوى ، ثم اذا بها فى الواقع سرطان « أبو جلمبو » ضخم .. أو هو أشبه ما يكون بالسرطان الذى نعرفه حيوانا مائيا يخرج الى الشواطىء .. حجمه أكبر من حجم مائدة كبيرة ، وأرجله الكثيرة تتحرك ببطء شديد ، وقرون استشعاره أشبه بالسياط وهى تتحرك وتتحسس الطريق ، وعيناه تتوهجان على جانبى جبهته المعدنية الصلبه ، وظهره تتناثر فوقه حدبات ونتوء وقد تزركشت بلطخ خضراء متناثرة هنا وهناك ..

وبينما انا أحملق فى هذا الوحش الزاحف نحوى ،

شعرت بدغدغة هينة فوق خدى كأنما حطت عليه ذبابة .. فحاولت أن أطردها بيدى ، ولكنها لم تلبث أن عادت بعد لحظة .. ثم حطت أخت لها فى الوقت نفسه فوق أذنى

« وكانت دغدغتها فى هذا الموضع الحساس أشد ، فضربتها بيدى فى غيظ .. واذا بى امسك بشىء كالخيط، واذا بالخيط ينسحب على عجل من بين أصابعى فالتفت مذعورا . وتبينت أننى قبضت على قرن استشعار سرطان متوحش آخر استقر خلفى تماما .. وعيناه جاحظتان فى محجريهما ، وفمه يتلمظ متحفزا ، ومخالبه الكبيرة مرتفعة فى الهواء تنقض نحوى ببطء

« وفى مثل لمح البصر ، كانت يدى على الرافعة .. وفى طرفة عين صار بينى وبين تلك المخالب مقدار شهر على الاقل ! .. ولكنى لم أزل على ذلك الشاطىء ، فلما أوقفت الآلة رأيت تلك الكائنات المتوحشة مرة اخرى بوضوح ، وكنت مرتفعا عن مستوى الارض .. فرأيت عشرات منها تروح وتجىء بين خضرة النباتات الداكنة ..

« وليس بوسعى أن أصور لكم مبلغ الوحشة الفظيعة التى ترين على العالم فى ذلك المستقبل الرهيب ، تحت سماء أفقها الشرقى أحمر ، ورقعتها الشمالية سوداء .. والبحر شبه ميت يمج الملح على الشواطىء أكداسا .. والشواطىء لا يعمرها من الكائنات الحية الا ذلك السرطان الوحشى الذى يقطر السم من نظراته ومخالبه ، ويكاد يقطر السم من خضرة النبات الداكنة .. والهواء هزيل التكوين تتأذى منه رئة الانسان .. »

« ورحلت بمقدار مائة سنة .. ثم ألقيت النظر فاذا

الشمس كما هي حمراء ، والبحر على مواته والهواء على تخلخله .. والسرطان الوحشي يملأ وجه الارض بين العشب الاخضر والصخر الاحمر، فحركت الرافعة وارتحلت حقبة اخرى الى الوراء ، وجعلت اسافر ساعة ثم اقف برهة فتأتى وقفتى على مراحل من ألوف السنين .. ومصير كوكبنا الارضى يشغل بالى ، ويعذبنى بتسقط أخباره وتتبع اطواره ..

« ورأيت الشمس تستعيد شيئا من بهائها ووهجها الناصع .. ثم رأيت الحياة تدب على وجه الارض . وعلى بعد نحو ثلاثين مليون سنة من عصرنا هذا ، أبهجنى أن تختفى من وجه الارض ظلال السرطان المتوحش . وحركت الرافعة ، وزدت من معدل السرعة .. وقد استبد بى الشوق الى الحياة كما نعهدها .. !

***

« وهكذا أيها السادة عدت .. ولابد أننى قضيت وقتا طويلا مغشيا على فوق مقعدى بآلة الزمن ، فتوالى الليل والنهار بسرعة فائقة مع اشتداد التفاوت بين الضوء والظلام أثر على خلايا أعصابى .. ووجدت نفسى حين افقت أتنفس بمزيد من الراحة ، ورأيت الشمس قد استردت لونها الذهبى وسط سماء زرقاء . ومن حولى ظلال البيوت والشوارع .. ونظرت الى مؤشر المسافات ، فوجدت رقم الملايين قد انتهى ، وعلمت اننى ازحف الى العصر الراهن .. فأبطأت من سرعة الآلة قليلا ، وبدأت اتبين أنماطا من العمارة ليست غريبة كل الغرابة ..

« وقليلا قليلا ، اقترب مؤشر السنوات من الصفر وهو نقطة الانطلاق .. وعندئذ تراءت لعينى جدران

معملى كما أعهدها ، وبحذر وعناية أوقفت الآلة ..

« وعاد الى هدوئى شـــيئا فشيئا .. ورحت افحص دقائق المعمل ، فاذا بها على ما كنت أعهدها .. فداخلنى الارتياب وقلت لعلنى غفوت وانا جالس الى مكتبى . ولا يعدو الامر كله أن يكون حلما رأيته فى المنام ..

« وهناك مسألة تقطع بأن ما رأيته لم يكن حلم نائم!.. لأنى انطلقت بالآلة من الركن الجنوبى الشرقى لمعملى . وعند الاياب استقرت بى الآلة هذه المرة فى الركن الشمالى الغربى .. والمسافة بين الركنين هى بالضبط المسافة بين موضع هبوطى فى عالم المستقبل على العشب وبين قاعدة تمثال أبى الهول التى خبأ فيها « المورلوك » الآلة، ومن هذا الموضع كان انطلاقى فى رحلة الاياب ..

« وبمعنى آخر ، تحول المكان الذى فيه معملى فى سنة ٨٠٢٧٠١ الى موضع بعضه عشب .. وفى الطرف منه تمثال أبى الهول فوق قاعدة من البرونز ، فأنا عندما انطلقت من الـــركن الجنوبى الشرقى وحططت فى ذلك المستقبل فى نفس موضع انطلاقى ، كان الموضع قد تحول الى خميلة معشبة. ونقل « المورلوك » آلة الزمن مقدار عشر خطوات داخل قاعدة تمثال أبى الهول ، ومن هناك انطلقت راجعا الى الحاضر . فحططت فى نفس موضع انطلاقى من ذلك الزمن . وكان هذا الموضع لا يبعد الا الخطوات العشر عن نقطة الرحيل الاولى من هنا .. اى من الزمن الحاضر ، وذلك الموضع هو الركن الشـــمالى الغربى من المعمل ..

« وظل ذهنى راكدا كالماء الآسن برهة من الوقت ، وانا بين الشك واليقين .. ثم نهضت وجئت مخترقا

هذا الدهليز ، وأنا أعرج لان عقبى لم يزل يؤلمنى .. وفيه ورم خفيف من السير المجهد والمسمار الذى اخترق النعل البالى ..

« ورأيت على مائدة فى الدهليز بجوار الباب العدد الاخير من مجلة « بول مول » فنظرت فى تاريخ صدوره فاذا به تاريخ اليوم . ونظرت الى ساعة الحائط ، فاذا بها تشير الى قرب الساعة الثامنة .. وسمعت اصواتكم، وصليل الصحاف ..

« وخطر لى لأول وهلة أن أدخل .. ثم ترددت لانى كنت أشعر بدوار وغثيان واعياء شـديد ، ولكن أتفق حسم الامر نيابة عنى .. لأن رائحة الشواء الجيد نفذت الى خياشيمى ، ففتحت عليكم الباب .. وأنتم تعلمون بقية القصة ، وكيف اغتسلت ثم جئت فتعشيت .. وهاأنذا أخبركم الآن بقصتى



حصيلة الرحلة

واستطرد رحالة الزمن قائلا :

« وانى لاعلم ان ذلك سيقع منكم موقع الانكار ، وانكم لن تصدقوا شيئا مما رويته لكم عن تلك الاسفار .. أما انا فالذى يعز على تصديقه شيء واحد هو انى موجود هذه الليلة فى هذه الحجرة المعهودة ، انظر الى وجوهكم المشرقة بالمودة واقص على مسامعكم تلك المغامرات العجيبة .. »

ووجه رحالة الزمن نظراته الى رجل الطب ، ثم قال له :

ـ كلا ! .. ليس فى وسعى أن أتوقع منك التصديق لما قلت .. فخذه ان شئت على محمل الاكذوبة .. وان شئت أيضا فعلى محمل النبوءة . وقل لنفسك ان هذا كله ان هو الا حلم حلمته وأنا فى معملى .. أو قل اننى كنت أفكر فى مصائر جنسنا البشرى وكوكبنا الارضى ونظامنا الشمسى . وظللت ماضيا مع التفكير والتقدير الى أن أفرخت هذه القصة . ولك أن تعتبر اصرارى على صدق ما قلت ، بمثابة قالب فنى أقدم فيه لكم مضمون فكرتى بطريقة طريفة مشوقة باعثة على الاهتمام ، ولكن ما رأيك فيما رويته كقصة ؟ ..

وتناول بعد ذلك غليونه ، وشرع على قديم عادته يدق

به سياج المدفأة المعدنى بحركة عصبية . وساد الصمت التام برهة من الوقت ، ثم بدأت الكراسى تتحرك والاحذية تحتك بالبساط .. فرفعت عينى عن وجه رحالة الزمن ، وأجلت طرفى فى وجوه الحاضرين . وكانوا جالسين فى الظل .. ورجل الطب يبدو مستغرقا تمام الاستغراق فى تفحص مضيفنا رحالة الزمان ..

أما رئيس التحرير ، فكان يثبت نظراته الثاقبة على طرف سيجاره .. وهو سيجاره السادس فى تلك الجلسة وأما المخبر الصحفى ، فكان يفتش فى جيبه عن ساعته .. والباقون فيما أذكر كانوا ساكنين عن كل حركة وكل تعبير

وأخيراً نهض رئيس التحرير واقفا وهو يتنهد ثم قال ، واضعا يده فوق كتف رحالة الزمن :

ــ من المؤسف أنك لا تحترف كتابة القصص !

ــ ألا تصدق ما قلت ؟ ..

« وابتسم رئيس التحرير ابتسامة ذات مغزى ولم يجب .. فقال الرحالة وهو يلتفت الينا :

ــ هذا ما كنت أنتظره .. ولكن أين الثقاب ؟ ..انى فى الحقيقة اكاد لا اصدق نفسى .. ومع ذلك ..

وأعطاه أحدنا صندوق الثقاب ، فأشعل غليونه ثم ألقى نظرة تساؤل غامض على الازهار الذابلة التى أخرجها عند وصوله من جيبه ، وقال انها من أزهار المستقبل . ثم قلب يده التى يمسك بها الغليون ، وأخذ ينظر الى ندوب كادت تلتئم عند مفاصل أصابعه .. المفروض

انها من آثار معارك تلك الرحلة فى المستقبل

ونهض الطبيب ووقف تحت المصباح يفحص الازهار ثم أظهر عجبه من غرابة تكوينها .. وانضم اليه العالم النفسانى فى الفحص ، ثم وقف المخبر الصحفى وقال :

ــ ان الساعة تقترب من الواحدة صباحا .. فكيف نصل الى بيوتنا ؟ ..

فقال له العالم النفسانى ان عربات الاجرة كثيرة عند المحطة .. وهز الطبيب رأسه ثم قال :

ــ انى عاجز تماما عن معرفة النظام الطبيعى لهذه الازهار .. فهل تسمح لى بها ؟

وظهر التردد على رحالة الزمن ، ثم هتف فجأة مظهرا اعتراضه على خروجها من حوزته .. فسأله الطبيب :

ــ أين حصلت على هذه الازهار حقيقة ؟

فرفع رحالة الزمن يده الى رأسه ، وتكلم بطريقة من يجتهد فى التمسك بفكرة تراوغه وتتملص فعلته منه ، قائلا:

ــ وضعتها فى جيبى « وينا » وأنا مسافر فى المستقبل .. ان منظركم ومنظر الحجرة يكاد يطير صوابى . فهذا المنظر متصل بماضى حياتى كله ، ويتحالف مع ذاكرتى متآمرا ضد فترة رحلتى فى الزمن .. فهل صنعت حقيقة آلة الزمن ، أم ما صنعته هو مجرد نموذج لها ؟. انهم يقولون ان الحياة حلم ، بل وحلم هزيل فى بعض الاوقات .. ولكن ليس فى وسعى أن أتحمل فى داخل هذا الحلم حلما يناقضه ولا يأتلف معه ، لان هذا هو الجنون بعينه . ولكن من أين جاء هذا الحلم العجيب ؟.

يجب أن ألقى الآن نظرة أخرى على تلك الآلة .. ان كان ثمة آلة !

ووثب واقفا ، فأمسك بالمصباح الموضوع على المائدة ، وحمله بسرعة وقد اشتد احتقان وجهه .. ثم اخترق الباب المفضى الى الدهليز .. ونهضنا كلنا على أثره ..

وهناك .. فى ضوء المصباح المترنح رأينا الآلة قائمة لاشك فى أمر وجودها وهى ذات منظر قبيح .. بعض أجزائها من النحاس الاصفر ، والبعض الآخر من خشب الابنوس الاسود .. وفيها قطع من العاج ومن الكوارتز اللامع ..

وكأنما لم أصدق عينى .. فمددت يدى وجعلت أتلمسها ، فلم تكن وهما .. فهى صلبة الملمس . وتحققت من وجود لطخ بنية اللون أشبه بالطين على بعض أجزائها . وكان فى العاج خدش يدل على الاحتكاك .. وأما الاجزاء السفلية فكانت عالقة بها أجزاء من العشب الاخضر والطحالب . وأحد القضبان كان ملتويا من أثر الارتطام بشىء ..

ووضع رحالة الزمن المصباح فوق مكتبه ، ثم تحسس بيده ذلك القضيب الملتوى .. مر عليه من أوله الى آخره فى تؤدة ، ثم انتصب قائما وقال لنا وقد زال من صوته ونظراته كل أثر للحيرة والتردد :

ــ الآن وضح كل شىء أيها السادة .. وانى آسف لانى أتيت بكم الى هذه القاعة الخالية من التدفئة

ثم تناول المصباح .. وفى سكون تام عدنا جميعا الى قاعة التدخين ..

وبعد قليل صحبنا الى البهو الخارجى ليودعنا ..

وأعان رئيس التحرير على ارتداء معطفه . ونظر الطبيب فى وجه الرحالة نظرة فاحصة ، ثم قال بعد شىء من التردد :

ـ انك مرهق من الاسراف فى العمل والسهر والتفكير ..

فضحك الرحالة ضحكة مجلجلة ، اعرابا عن عدم اكتراثه .. وانى لاذكر تماما منظره وهو واقف على عتبة باب داره من الخارج يلوح لنا بيده ويتمنى لنا ليلة سعيدة ..

وركبت عربة أجرة شاركنى فيها رئيس التحرير .. وكان رأيه الصريح ان القصة كلها « كذب فى كذب » .. أما أنا فكنت فى الحقيقة عاجزا عن القطع برأى . فهناك أشياء كثيرة فى لهجته وطريقة روايته توحى بالصدق . وكيف أنسى شدة لهفته وهو يلتفت بقلق ليسألنا عن صندوق الثقاب وهو يريد أن يشعل غليونه ؟ انها لهفة انسان مر بتجربة قاسية ، كان عود الثقاب فيها ذا أهمية بالغة الخطورة ! .. وقد يكون فيصلا بين الحياة والموت . وليس فى ظروف معيشتنا اليومية فى هذا العصر ما يبرر أدنى تبرير تلك اللهفة العميقة ! ..

ان القصة بلا شك أغرب من كل خيال .. ولكن أسلوب سردها خال من المبالغة ، وفيه ما يوحى بالصدق وليس فيه شىء يشعر بالتزييف

زهرتان ذابلتان

وفى دارى ، وعلى فراشى ، رقدت معظم الليل مفتوح العينين أفكر فيما سمعته تلك الليلة من ذلك الصديق العالم غريب الاطوار . ولم يطمئن خاطرى حتى قطعت على نفسى عهدا بان ازوره فى اليوم التالى لالقى نظرة أخرى على آلة الزمن ، وأجتمع بصديقى رحالة الزمن لاستوضحه .. ولعل المقابلة تحسم ما أعانيه من بلبلة ..

وفى اليوم التالى ، ذهبت لزيارته فعلا .. فقيل لى انه فى معمله . ولما كنت ممن يترددون على الدار بغير كلفة ، فقد تركونى أمضى اليه هناك .. ولكنى وجدت المعمل خاليا . وجلست انتظره قليلا وانا احملق فى آلة الزمن ، ثم اتجهت نحوها ومددت يدى فلمست احدى روافعها .. واذا بهذه الكتلة الضخمة الثقيلة من الآلات والاجهزة ترتجف كأنها غصن صغير فى مهب ريح عاتية ..

وأزعجنى ما حدث جدا .. لانه ذكرنى على الفور بتحذيرات أمى وأنا صغير من مد يدى الى شىء مجهول لا شأن لى به . وخرجت مسرعا الى الدهليز ، فالتقيت برحالة الزمن وجها لوجه فى قاعة التدخين .. وكان قادما من جهة حجرات البيت ..

ورأيت فى يده آلة تصوير صغيرة .. وتحت ابطه حقيبة

شـــبيهة بحقائب الجنـــود . فلما رآنى أشرق وجهه بالضحك ، وقال :

ـ انى كما ترى مشغول جدا ...

ـ بم ؟ ...

ـ بذلك الشىء اللعين الموجود فى معملى ..

فضحكت وقلت :

ـ تعنى اختراعك العجيب : آلة الزمن ؟

ـ طبعـــا ...

فنظرت اليه مليا ، وقلت بجد :

ـ اتعنى أن المسألة ليست من اولها الى آخرها نوعا من المـــزاح ؟

ـ اطـلاقا ! ..

ـ هل تريد أن تقول انك حقا ترحل وتجـوب آفاق الـــزمن ؟

فثبت عينيه فى عينى بنظرة صريحة وقال :

ـ انى حقا وصدقا أجوب آفاق الزمن ..

ثم ظهر عليه التردد قليلا ، وأجال عينيه فى أرجاء قاعة التدخين وقال :

ـ أستميحك فى نصف ساعة فقط ..

ـ لا تقيد نفسك بى .. انى كنت على وشك الانصراف

ـ أوه .. كلا .. انا أعرف السبب الذى حـدا بك الى الحضور ..

ـ حقـا ؟ ! . .

ـ ومعنى هذا أنك تريد أن تصدقنى وتأخذ الصـدق مأخذ الامكان ، ولا تلقى بالقصة كلها فى عرض الطريق . . انك تطلب دليلا يساعدك على تصديقى لأنك راغب فى ذلك التصديق . وهذا كرم عظيم منك . . وعندى هنا عدد من المجلات ، تستطيع أن تقضى الوقت فى تصفحها . . فلو أنك تكرمت بالبقاء لتناول الغداء معى لاتحت لى أن أقدم لك الدليل الدامغ على ذلك السفر فى الزمن ، مدعما بأسانيد من نماذج النباتات والصور الشمسية . . وربما أيضا بنماذج من الكائنات الحيـة ، فقد آتيك بأحـد « الايلوى » من فصيلة « وينا » فهل لك أن تأذن لى الآن فى مغادرتك

وأعترف أننى لم افهم المغزى الكامل لكلماته ، كأنما كنت واقعا تحت تأثير مغناطيسى من حماسته . . فقد وافقت على البقاء . وأومأ لى الرحالة برأسه ، ثم اجتاز الدهليز متجها الى معمله . .

سمعت باب المعمل وهو يصفق . . فاخترت مقعـدا وثيرا من مقاعد التدخين وجلست فيه ، ثم تناولت احدى الصحف اليومية الكثيرة وانا أقول لنفسى :

ـ ترى ما الذى ينوى أن يفعله هذا الرجل فى الفترة السابقة على موعد الغداء ؟ . .

وفيما أنا أقلب الصـحيفة فى يدى ، وقع نظرى على اعلان عن احدى دور النشر . . فذكرنى ذلك عـلى الفور بوعد ارتبطت به أن أذهب لمقابلة الناشر «ريتشاردسون» فى مكتبه فى تمام الساعة الثانية . . فنظرت فى ساعتى ،

وأدركت انى يجب ان أنصرف على الفور لاصل فى الموعد المذكور .. فلا يمكننى أن ابقى لتناول الغداء ..

وفى الحال نهضت واخترقت الدهليز كى اخبر رحالة الزمن بالتغيير الذى طرأ على خطتى ..

ومـا أن وضـعت يدى على مقبض باب المعمل حتى سمعت صيحة تعجب .. وكأنما خنق هذه الصيحة عن الاسترسال شيء ، وسمعت حركة احتكاك معدن بمعدن .. واهتزت الارض قليلا ، ولفتنى دوامة من الهواء وانا أفتح الباب .. وهبت من الداخل أصوات تحطم الزجاج من أثر ارتجاج الارض والبناء . وتناثر حطام الزجـاج على الارض .. ولكن رحالة الزمان لم يـكن موجـودا بالداخل ..

وخيل الى أنى أرى شكلا غير واضح ، وكأنه شـبح فوق قمة كتلة من النحاس والمعدن الاسود تدور فى الهواء بسرعة . وكان الشكل فى مجموعه شفافا ، بحيث ان المكتب وما عليه من أوراق ورسـوم كان ظاهرا لعينى بوضوح من خلال تلك الصورة .. فجعلت أفـرك عينى بأصابعى لاتحقق مما أرى ، بيد ان هذه الصورة الشبحية تلاشت عند انتهائى من فرك عينى واذا بآلة الزمان قـد اختفت !

ودققت النظر فى موضعها حيث رأيتها عند حضورى منذ دقائق .. فلم أجد فى ذلك الركن من المعمل شيئا سوى دوامة من الغبار توشك أن تهدأ ، ومن فوقها مربع كبير من زجاج نافذة السقف وقد تحطم

وانتابتنى دهشة لا يتصورها العقل .. وأدركت أن

شـــيئا عجيبا للغاية قد حدث ، ولكنى لم أستطع التكهن بماهية ذلك الشيء ..

وفيما أنا واقف أحملق مبهوتـــا ، فتح بـــاب المعمل المفضى الى الحديقة ودخل الخادم .. ونظر كل منا الى الآخر ، ثم ثاب الى شيء من الرشد فسألته :

ـ هل خرج السيد من هذا الطريق ؟ ..

ـ كلا ياسيدى .. لم يخرج من هذا الطريق ..

وكنت قادما الى هنا لاتحدث الى السيد فى أمر ما ..

وعندئذ أدركت أن صديقى انطلق فى رحلته الثانية .. وقررت المجازفة بسخط الناشر « ريتشارد ســون » وعولت على انتظار عودة رحالة الزمن ، مزودا هذه المرة بالنماذج والصور الفوتغرافيـــة .. ولـــكنى اخشى أن انتظارى سيطول الى نهاية العمر ، لان اختفاء رحالة الزمن دام حتى الان ثلاث سنين .. !

***

وليس فى وسع الانسان الا أن يعجب ويتساءل :

ـ أتراه سيعود يوما ؟ ..

لعله فى هذه المرة اقتحم الماضى .. ووقع بين براثن أجدادنا المتوحشين فى العصر الحجرى .. فأكلوه ، أو أمعن فى الماضى فتلقفته الحيوانات المنقرضة من طبقـــة الدناصور .. أو لعله رحل الى مستقبل قريب يبعد عنا ألفا أو ألفين من السنين ، فوجد البشر ما يزالون هم البشر .. ولكن مشكلاتنا جميعا وجدت حلهـــا الموفق عندهم ، فآثر البقاء على العودة .. !

لقد كان هذا على الاقل هو ايمان صديقى .. فقد كان مسرفا فى التفاؤل بالعلم والحضارة الى حد التشـــاؤم المطلق .. كان يرى أن الحضارة ستصل الى مداها من التنظيم العلمى بحيث تنقلب بفعــل التــرف والراحـــة والاستقرار الى الانحلال والاضمحلال .. أما أنا فالمستقبل فى نظرى مظلم لا يحصل فيه البشر على شىء من النور الا بالجهد الجهيــد ، ولا يتغلبون على مشكلة الا وتنجم مشكلة اخرى تحتاج الى علاج ..

ان قصة صديقى لا تلقى من الضوء على غياهب المستقبل الا شعاعا ضئيلا جدا .. وكل ما بقى عندى من دليل على هذا الشعاع يريح بالى ، ويحد من طغيان الشك فى صدقه، زهرتان غريبتان بيضاوان .. أو هكذا كانتا ، فهما الآن شىء جاف داكن اللون ..

ولست أنسى ، حين أذكر هاتين الزهرتين ، تذكارا أبقى منهما واقوى على مقابلة الذبول والجفاف ، هو الاحساس الذى يملأ قلبى بالامتنان والرقة الشديدة لذلك الانسان الذى تغلب فيه حب المعرفة وحب البشريه على حب الراحة الشخصية وحب البقاء ..

فهرس

صفحة

وكلاء مجلات دار الهلال

العـــراق : السيد محمـــود حلمي ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص٠ب ٤٩٣

البحـــرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص٠ب ٢١

البـــرازيل : Dr. Michel Tohmé,
Rua Basilio Jafet No. 127,
5" and Sal 54,
SAO PAULO — BRASIL

ســـيراليون : Messrs. Allie Mustapha & Sons,
P.O. Box 410,
Freetown Siera Leone

ســـنغافورة : M. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit,
Almaktab Attijari Assharqi,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجـــلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU,
7, Bishopsthorpe Road,
London S. E. 26,
ENGLAND

نيجـــيريا : Mr. Mohamed Said Mansour.
Atlas Library Company,
126, Nnamdi Azikiwe Street
LAGOS NIGERIA

هذا الكتاب

ان العصر الذى نعيش فيه لا يصدق عليه وصف أدق من وصفه بعصر الفضاء ، فان اسم عصر الذرة لم يعد كافيا للتطور الجديد الذى طرأ على مجرى تيار العلم والحضارة .. ولئن كان جاجارين هو أول رائد لرحلات الفضاء فى الواقع ، فان ويلز من أوائل رواد الفضاء فى عالم الفكر وبمنطق العلم

وكتابه هذا رحلة فى دنيا المستقبل ، لم يرحل فيه الى اجواز الفضاء ليستقر فى كوكب آخر ، بل رحل فيه ليشق أحقاب الزمن ويحطم حاجزالوقت

وهو فى رحلته هذه يقوم بدور البشير النذير ، فيصور فى سياق قصصى رائع وتشويق بديع مايمكن ان يصل اليه الجنس البشرى مع تقدم العلم السريع .. وينبه الى الاخطار التى تترتب على الاسراف فى الفوارق الاجتماعية ، وكيف يمكن أن تؤدى الى انحلال الانسانية وانحدارها الى درك أحط أحيانا من درك الحيوان البهيم ..